

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية
قصة
حملة
الأمير
إيغور





قصة الحملة التى قادها
الأمير إيغور بن
سفياتوسلاف بن أوليغ



دار «رادوغا»
موسكو

كلمة الأدب
الروسى الذهبية



ترجم النص الى اللغة العربية
خميس حرج نشمى

كتب المقدمة
دميترى ليخاتشوف

وضع الهوامش
دميترى ليخاتشوف وليف دميترييف ونيكيتا ميشيرسكى

رسوم
فلاديمير فافورسكى

СЛОВО О ПОЛКУ ИГОРЕВЕ

на арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

ISBN 5-05-002026-3

قبل ثمانية قرون ، اى فى عام ۱۱۸۷ ، كتبت «الكلمة عن حملة ايغور» * — المؤلف العبقرى للأدب الروسى . ان توالى القرون لم يقلل من رنينه الشعرى ولم يذهب بطلائه . أما الاهتمام به فلم يقل وحسب ، بل أنه آخذ بالازدياد سعة وعمقا اكثر فأكثر .

ما هو سر خلود هذا الأثر الأدبى الصغير بحجمه ؟ ولماذا تظل فكرته تقلقنا الى يومنا هذا ؟

ان حب الوطن قد الهم مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» ، وكأنه قد سيّر قلمه . لقد خلد هذا الحب عمل المؤلف وجعله مفهوما ومقربا من كل الناس الذين يحبون وطنهم وشعبهم على حد سواء .

ان شعورا انسانيا كبيرا قد تغلغل فى «الكلمة عن حملة ايغور» — شعورا دافئا ، رقيقا وقويا ، هو شعور الحب للوطن . كأن «الكلمة» مشربة به . وهذا الشعور ظاهر فى ذلك الاضطراب النفسى ، الذى يحكى فيه مؤلف «الكلمة» عن اندحار جيش ايغور ، عن

---

* انظر الهوامش .

عويل وكاء النساء الروسيات على الجنود القتلى ، عن الصورة العريضة للطبيعة الروسية ، عن الفرح والأبتهاج بعودة ايغور .

لهذا بالضبط نرى أن أهمية «الكلمة» قد نمت بلا حدود فى عصرنا الراهن ، عندما برزت وطنية الشعب السوفييتى اللامتناهية ووحدته المتينة ؛ لهذا بالضبط نرى أنها قد وجدت ذلك الصدى الحار فى قلوب كل الناس السوفييت المتفانين فى اخلاصهم لوطنهم . ان نداء «الكلمة» الموجه للدفاع عن الوطن وحماية العمل السلمى لشعبه يدوى ، والى الآن ، بقوة لا تضعف .

من جهة أخرى أن «الكلمة» ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا بسبب أنها برهان لا ريب فيه على سمو الثقافة الروسية القديمة ، وعلى اصالتها وطابعها الشعبى .

روسيا ابان
«الكلمة عن حملة إيغور»

لقد ألفت «الكلمة عن حملة ايغور» فى الفترة التى بلغت فيها عملية التقسيم الاقطاعى لروسيا قوتها العظمى . لقد نشأ عدد كبير من الأمارات الاقطاعية الصغيرة — «أشباه الدول» — التى كانت تعادى بعضها البعض ، متنازعة فيما بينها على الضياع والزعامة ، داخلة فى حروب اقتتال الاخوة فى سبيل المصالح الأنانية للأمراء . فى هذا الوقت أخذت تتدهور أهمية كييف كمركز للأرض الروسية .

لقد بدأ تفتت دولة كييف الموحدة فى عهد ياروسلاف الحكيم فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، عندما أنفصلت أرض بولوتسك . أما موت ياروسلاف الحكيم (ه ٤) فقد قاد الى استمرار تقسيم الأرض الروسية : فحسب وصية ياروسلاف وزعت المدن الروسية الرئيسية فى ذلك العصر ، وهى كييف وتشرنيغوف وبيرياسلافل وفلاديمير — فولينسكى وسمولينسك مع المقاطعات المحيطة بها على أولاده . ففى نهاية القرن

الحادى عشر خصصت أمارة تشرنيغوف بصورة نهائية لحفيد ياروسلاف — أوليغ بن سفياتوسلاف (هـ ٣٧) ، الذى سماه مؤلف «الكلمة» بأوليغ غوريسلافيتش ، معتبراً اياه ، عن حق ، كأحد من الأمراء الذين منهم «زرعت ونمت بشدة النزاعات الداخلية» فـــى الأرض الروسية .

ان انسلاخ بعض الأراضى كأمارات متوارثة كان معترفا به من قبل الأمير فلاديمير مونوماخ (هـ ٣٧) فى المؤتمر الذى عقده الأمراء فى مدينة لوبيتش عام ١٠٩٧ . يقول أحد قرارات هذا المؤتمر : «ليمتلك كل واحد أرض أبيه» .

لم يقد مؤتمر لوبيتش ، الذى اعترف بتقسيم الأرض الروسية ، الأمراء الى أى اتفاق ولو مؤقت . ان قرارته قد خرقت فى الحال : فقد القى القبض غدرا على احد الأمراء — وهو فاسيلوك أمير تيريبوفل — من قبل أميرين آخرين وفقأتا عيناه ، وبدأت من جديد خصومات الأمراء . لقد دعا شعب كييف الى الوحدة ، عندما توجه الى الأمير فلاديمير مونوماخ بنداء عدم «تدمير الأراضى الروسية» بخصوماتهم ،

مذكرين اياه أن اعداء الوطن — البولوفيتسيون (القفجق) — «سيفرحون وسيأخذون أرضنا» (هـ ٨) . يختتم النداء بالقاء اللائمة المباشرة على الأمراء ، الذين يريدون بخصوماتهم الداخلية «تدمير الأرض الروسية» . لقد كان نداء الشعب هذا الى الأمراء على شفاه كل جيل من أجيال الشعب الروسى — فى كل أمارة وفى كل مدينة .

غاليتش ، ريزان ، سمولينسك ، فلاديمير-فولينسكى ، فلاديمير-زاليسكى ، روستوف ، نوفغورود — ان كل هذه المراكز الاقليمية تسعى بعزم الى الاستقلال السياسى ، انها تخرج من تحت تأثير عرش كييف الواهن وتنفرد فى مصالحها الأقليمية الأنانية ؛ ان الأمراء يدخلون فى صراع مستميت مع بعضهم البعض ، وعن الصغيرة يقولون «انها عظيمة» وينغمسون فى حروب اقتتال الأخوة اللامتناهية .

ان صراع الأمراء الداخلى قد تعقد بصورة مفجعة جراء خطر القفجق الذى خيم على روسيا . لقد سيطر القفجق فى اواسط القرن الحادى عشر على السهوب الممتدة بين نهرى الفولغا والدنيبر ، على شبه جزيرة القرم وشبه جزيرة البلقان . وقد كانوا يمثلون قوة حربية

جبارة ، بحيث انهم هددوا مرارا وجود الامبراطورية البيزنطية ، التى بدورها كانت تتوجه الى الأمراء الروس طالبة العون فى الحروب . أفلح الأمراء الروس فى بداية القرن الثانى عشر فى احراز انتصارات كبيرة على القفجق ، لكن القفجق استمروا فى نهب سكان القرى والمدن الآمنين : فهم كانوا ينهبون القرى ويحرقون المدن ويضربون بلا رحمة ويسوقون الناس الى الرق . ولم تكن تقف فى وجه فرسان السهوب الجامحين موانع طبيعية فى أراضى روسيا اللامتناهية ، المنبسطة والفسيحة فى الجنوب والجنوب الشرقى ، التى كان من الصعب صيانتها . ان القبائل الرحل التى جاءت من «السهب المقفر» ، من «البلاد الغريبة» قد سعت بحملات مباغتة الى التغلغل فى اعماق الأرض الروسية . لقد جوبهت موجات غارات السهوب بمقاومة عنيدة من قبل الأمارات المدمرة . لكن قسما من القفجق قد حط رحاله واستوطن فى الاراضى الحدودية تحت اسم الـ«كوفوى» و«وثنيينا» ، حيث تأثر تدريجيا بالحضارة الروسية السلمية . لكن خصومات الأمراء الروس قد هيأت الظروف لاعتداءات جديدة ، فان العداء بين

الأمراء قد حدا بهم الى أن يدعوا القفجق لتقديم المساعدة لهم ، مما أدى الى تخلخل نظام الدولة الروسية .

حضارة روسيا ابان
«الكلمة عن حملة إيغور»

بيد أن تدهور وحدة روسيا السياسى لم يكن مرتبطا بتدهورها الثقافى . ان تدهور دولة كييف كان سببه تطور الحياة الاقتصادية فى المقاطعات وما صاحبه من نمو لبعض اجزائها ونشوء مراكز اقليمية جديدة وازدياد نشاط جماهير السكان فى المدن .

فجنبا الى جنب مع كييف ونوفغورود وتشرنيغوف أخذ ينمو ويقوى فى هذه الفترة عدد كبير من المراكز الجديدة للحضارة الروسية ، وهى : فلاديمير-زاليسكى وفلاديمير-فولينسكى وبولوتسك وسمولينسك وتوروف وغاليتش . فان المدارس الأدبية الأقليمية ، والبناء الفريد جدا فى نوعه لكل مقاطعة ، والرسم والفنون

الجميلة أخذت تتطور وتقوى فى هذه الفترة بالذات .
لقد شيد العديد من المبانى الحجرية فى كييف وتشرنيغوف وفلاديمير-فولينسكى وغاليتش ، ونوفغورود وسمولينسك وفلاديمير-زاليسكى وفى مدن روسيا الشاسعة الأخرى .

كتب المؤرخ عن أحد مبانى هذا العصر : انه «مبتكر بكل دهاء» وسهل على مخيلة الأنسان . أما الأبنية ذات الحجارة البيضاء لهذه الحقبة والتى ما زالت قائمة فى مدينة فلاديمير-زاليسكى ، فانها غنية الزينة من الخارج بنقوش بارزة للأسود والنمور الرقط والغرفين * والقنطور ** والفرسان . . . الخ . فى التصوير كانت ترسم لوحات جدارية بديعة على الجص . ان بقايا مثل هذه الرسوم موجودة فى مدينة بسكوف ، وفى مدينة ستاريا لادوغا ، وفى مدينة نوفغورود .

---

* الغرفين — حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد . **المترجم** .

** القنطور — كائن خرافى نصفه رجل ونصفه فرس . **المترجم** .

بالرغم من أن محتوى هذه الرسوم الجدارية كان فى الأغلب كنسيا-دينيا ، الا أن الذين رسموها كانوا مهرة روس قد عرفوا وأحبوا الفن الشعبى الروسى البهى والباعث على السرور ، فعكسوه فيها .

ان الفنون الشعبية هى الأخرى تبرهن على المستوى الرفيع للحضارة الروسية فى عهد وضع «الكلمة عن حملة ايغور» . فالحرف الفنية فى القرن الثانى عشر قد تجلت فى الرسوم الباهرة ، والحلى المصاغة بدقة متناهية من الذهب والفضة والميناء والسواد * ، والسلع المصنوعة من الحديد ، والنقش على العظم والحجر والخشب الخ . لقد وصلتنا اثنتان واربعون تسمية لمختلف الاختصاصات الحرفية لهذا العصر .

أما فن الكلام فقد بلغ الذروة فى تطوره خلال القرن الثانى عشر . ان اكثر المؤلفات الروسية القديمة المكتوبة فى القرن الثانى عشر لم تصلنا بسبب ما أتلف منها من قبل الأعداء والحرائق ، لكن حتى

---

* السواد — نقش على الفضة والذهب ملئت خطوطه بخليط معدنى اسود مسبوك يعرف عند صاغة الفضة فى العراق باسم «المَحْرَق» . **المترجم** .

تلك المخطوطات القلائل المتبقية تدل بصورة عامة على سمو الحضارة الأدبية للقرن الثانى عشر ، على وجود عدة مدارس ادبية ، وعلى تعدد اشكال الفن الأدبى ، والحاجة الماسة الى الأدب ، وعلى اعتياد القراءة . فى هذه الفترة كانت دواوين الأخبار تدار فى كل مدينة تقريبا ، وفى اديرة كثيرة ، وفى بعض الأحيان ، فى قصر الأمير المحلى .

ان تطور الأدب الروسى السريع للغاية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان مرتبطا بنمو اللغة الروسية القديمة الفصحى ــ المختصرة ، البليغة ، المرنة ، الغنية بمفرداتها ، الجزيلة بمترادفاتها ، القادرة على عكس الكثير من أدق الفوارق فى المعنى الفكرى والنفسى . لبت اللغة الروسية فى هذه الفترة الزمنية متطلبات الواقع الروسى المعقد للغاية ، وخلقت مصطلحات سياسية وعسكرية وفنية غنية ، وكانت قادرة كليا على اذكاء فن الخطابة ، على اداء المضمون التأريخى المعقد للتأريخ العالمى والروسى ، وعلى استيعاب أحسن مؤلفات اوروبا القروسطية الأدبية المترجمة . ان اللغة الروسية القديمة الفصحى عكست عموما مستوى الحضارة

الروسية القديمة الرفيع ، التى لم تتعرض بعد لما جلبه الغزو المغولى-التترى من تدمير وخراب .

لقد تطورت اللغة الروسية القديمة الفصحى المكتوبة على أركان اللغة الروسية الفصحى الشفهية ــ لغة الشعر الشعبى الشفهى ذات المستوى الرفيع ولغة الحياة السياسية . فان الخطب ، التى كان الامراء الروس بها «يلهبون حماس» محاربيهم قبيل بدء المعركة ، كانت رائعة بايجازها ، واستعاراتها ، وطاقتها وطلاقة تعبيرها . اما الخطب التى كانت تلقى فى الأجتماعات ، فامتازت بالايجاز والسبك الجيد للصيغ الكلامية والاستعارات الحاذقة . كذلك يمكن القول عن الخطب التى كانت تلقى فى الولائم ، وفى المحاكم ، وفى مؤتمرات الأمراء ، وعن الخطب التى كان يلقيها السفراء . لقد انصبت فى اللغة الروسية الفصحى بعض كلمات وجمل اللغة البلغارية القديمة ، التى كانت تستعمل فى الكتابة الكنسية وفى تأدية الشعائر الدينية ، وكانت تعرف باسم اللغة الكنسية-السلافية .

لكن القواعد النحوية للغة الروسية ظلت روسية ، وان كلمات اللغة الكنسية-السلافية لم تنل من ثراء

مفردات اللغة الروسية ، بل على العكس ، اذ انصهرت فى اللغة الروسيه هذه العناصر ، وبذا اصبحت اغنى وافصح . ان مفردات اللغة الروسية القديمة فى القرن الثانى عشر كانت بحد ذاتها غنية جدا .

اما لغة دواوين الأخبار ، ولغة المعاهدات والوثائق والكثير من المؤلفات الروسية المكتوبة ، وبالدرجة الأولى لغة «الكلمة عن حملة ايغور» ، — فكانت اللغة الروسية القديمة الفصحى المكتوبة . لقد كانت هذه اللغة الفنية والمعبرة احدى منجزات الشعب الروسى الرئيسية فى ذلك العصر .

حوادث التأريخ الروسى ، التى سبقت حملة إيغور بن سفياتوسلاف من نوفغورود—سيفرسكي

ان غالبية الحروب الداخلية الاقطاعية فى القرن الثانى عشر كانت مرتبطة بالعداء بين ذرية مونوماخ

وذرية خصمه أوليغ بن سفياتوسلاف ، أو أوليغ غوريسلافيتش ، كما يلقب فى «الكلمة عن حملة ايغور» . لقد استخدمت الجهتان — بنو مونوماخ وبنو أوليغ — بصورة دائمة مساعدات القفجق فى حملاتها على الأمارات الروسية المجاورة . لكن فى الغالب كان بنو أوليغ (أمراء تشرنيغوف) هم الذين يلجأون الى مساعدة القفجق ، باحثين عن السلام والاتحاد مع سكان السهوب المتاخمة المزعجين . ان هذه «المساعدة» ، بالاضافة الى الحملات التى كان يقوم بها القفجق انفسهم ، قد اصبحت منذ نهاية القرن الحادى عشر بمثابة كارثة شعبية قاسية . لقد تزايدت هذه الغزوات بالأخص فى السبعينات من القرن الثانى عشر ، عندما بدأت «حرب بلا هوادة» ، حسب تعبير المؤرخ .

كان لدى الأمراء الروس فى ذلك الوقت مقاتلون محترفون مجربون ومتمرسون فى المعارك ، يؤلفون النواة الاساسية للجيش — الا وهم حرس الأمير (فرسانه ، واصحابه وأهل الثقة عنده . **المترجم**) . بالاضافة الى هذا الحرس كان بمقدور الأمراء ان يجمعوا وقت الضرورة عساكر كبيرة من الفلاحين وسكان المدن .

كانت المخافر قائمة على الحدود مع السهوب ، أما فى السهب نفسه فكان «الحراس» الروس ــ الكشافة موزعين هنا وهناك لرصد تحركات القبائل الرحل .

كانت الجيوش الروسية فى القرن الثانى عشر مؤلفة فى الأساس من فرق الخيالة السريعة جدا فى تحركاتها ، والتى وضعت لنفسها تكتيكا بارعا فى صراعها مع القبائل الرحل . وكانت الحملات الروسية على السهوب تبدأ عادة فى الربيع ، عندما تكون خيول القفجق هزيلة جراء العلف الشتوى الشحيح ، فكانت تبدو ضعيفة جدا ازاء خيول الجيوش الروسية . كانت الجيوش الروسية فى القتال تحارب بتشكيلات معقدة ، وتبدى صمودا وشجاعة . ان شعور الشرف العسكرى وحب الوطن كانا من مميزات حرس الأمير المحترف ومن مميزات المجندين البسطاء من الشعب . كان سلاح حرس الأمير يتألف عادة من السيوف والأقواس ، فى بعض الأحيان من الدبابيس ذات النتوات الستة والرماح . بالاضافة الى هذا كان الحرس يملك الخوذ الفولاذية والدروع ، التى ظهرت فى روسيا قبل ظهورها فى اوربا الغربية . اما سلاح المحاربين

البسطاء فكان فى الغالب يتألف من الرماح والفؤوس . لم يكن فى روسيا فى ذلك الوقت جيش كبير على عموم البلاد ، تحت قيادة موحدة ، بل كان لكل امير جيش صغير خاص به ، وكان من الصعوبة جدا جمع جيش كبير فى الحملات الموحدة ، التى كان يقوم بها الأمراء الروس بين الحين والآخر ضد القفجق . كانت هذه الحملات تتطلب جهدا كبيرا .

فى السبعينات من القرن الثانى عشر اتحد القفجق تحت زعامة الخان كونتشاك ، بعد الهزائم التى الحقت بهم ، فحصلت قواتهم على تنظيم موحد وتسليح جيد : ظهرت عندها مجانيق (عرّادات) معقدة ، و«النار الاغريقية»* واقواس قاذفة ضخمة تتحرك «على عربات عالية» ، ذات أوتار كبيرة يحتاج الى شدها اكثر من

---

* النار الأغريقية ــ خليط محرق مكون من القار والنفط والكبريت ونترات البوتاسيوم وغيرها ، استخدم فى القرون السابع ــ الخامس عشر فى المعارك البحرية وفى حصار المدن والقلاع . كان يقذف بواسطة عراوات وانابيب نحاسية خاصة . والماء لا يطفئ النار الأغريقية . **المترجم** .

خمسين مقاتلا . اصطدمت روسيا المتآكلة بخصوماتها الداخلية وجها لوجه بجيش الشعوب الرحل القوى ، والأهم من ذلك ، الموحد .

وتحت تأثير خطر القفجق أخذت فكرة ضرورة الأتحاد تنضج حتى بين الامراء . ففى الثمانينات من القرن الثانى عشر حدثت محاولة صلح بين بنى أوليغ وبنى مونوماخ . فبدأ بنو أوليغ يتخلون عن سياستهم التقليدية فى اتحادهم مع السهوب ، وجدير بالذكر أن بطل «الكلمة عن حملة ايغور» — حفيد أوليغ ، ايغور بن سفياتوسلاف (هـ ٢) أمير نوفغورود-سيفرسكى — لعب دورا هاما جدا فى تاريخ هذا التحول فى سياسة بنى أوليغ .

كان ايغور فى البداية أميرا أوليغيا نموذجيا . فحتى عام ١١٨٠ كان القفجق يقدمون له المساعدة بهمة كبيرة . وعلى سبيل المثال : عندما سحق ريوريك بن روستيسلاف ، أمير كييف ، ايغور وحلفاءه القفجق قرب مدينة دولوبسك ، قفز ايغور وحليفه (عدوه اللدود فى المستقبل) الخان كونتشاك الى زورق واستطاعا أن يختفيا عن انظار أمير كييف .

لكن ريوريك بعد الأنتصار الذى أحرزه ، تنازل عن عرش كييف العظيم للأمير الأوليغى سفياتوسلاف بن فسيفولود (هـ ٥٢) ، ربما ، لأنه لم يجد فى نفسه القوة الكافية لأن يحتفظ بالحكم ، لكنه ابقى لنفسه المدن الأخرى فى أمارة كييف ، وبذا يكون قد جنى ثمار انتصاره بطريقته الخاصة . لقد تنازل ريوريك عن كييف لسفياتوسلاف وفق شروط لا يمكننا الا أن نخمنها اذ يبدو أن سفياتوسلاف قد تعهد أن يتخلى عن أى اتحاد مع القفجق والتزم بأن يعمل ضدهم بالاتفاق مع كل الأمراء الروس . فى الأعوام التالية استطاع ريوريك وسفياتوسلاف أن ينظما الحملات المتحدة للأمراء الروس ضد أهل السهوب .

ان تعهدات زعيم كل أمراء بنى أوليغ — أمير كييف سفياتوسلاف — قد شملت أيضا ابن عمه ايغور بن سفياتوسلاف أمير نوفغورود-سيفرسكى ، الذى كان خاضعا لسلطته الأقطاعية . لقد تخلى ايغور ، الشريف والمخلص ، نهائيا عن سياسته السابقة واصبح من الدّ اعداء القفجق . لكن ايغور لم يستطع رأسا أن

يبرهن على وفائه للسياسة الوحدوية الجديدة فى الصراع المشترك ضد القفجق .

فى عام ١١٨٤ هُزم القفجق بفضل تضافر جهود الأمراء الروس تحت قيادة سفياتوسلاف بن فسيفولود أُمير كييف ، فاستولت القوات الروسية على آلات حربية وحررت الأسرى الروس من الرق القفجقى . ارتعب القفجق وبدا أن الخطر قد أُزيح عن الأرض الروسية لفترة طويلة . لكن ايغور بن سفياتوسلاف لم يستطع أن يساهم فى هذه الحملة الظافرة : اذ انها بدأت فى الربيع وقد عاق الجليد الذى لم يذب بعد قواته الخيالة من الوصول فى الوقت المحدد . ويبدو أن ايغور قد تأثر جدا بهذا الأخفاق : فهو لم يستطع أن يبرهن على وفائه لأتحاد الأمراء الروس ضـــد القفجق — فكان باستطاعتهم أن يتهموه بالتهرب عمدا من المساهمة فى الحملة ، لأنه كان حليفا سابقا للخان كونتشاك . لهذا السبب اندفع ايغور فى العام التالى (١١٨٥) ، عندما «لم يكبح فتوته» وحماس شبابه ، فى حملة ضد القفجق دون أن يتفق مع سفياتوسلاف وريوريك .

لقد وضع ايغور نصب عينيه مهمة جريئة وهى أن «يبحث» عن المدينة القديمة تموتوروكان ، التى كانت واقعة على البحر الأسود والتى كانت تابعة فى زمن ما لامارة تشيرنيغوف ، بقواه الخاصة دون مساعدة من أُحد . ان احساسه الرفيع بشرفه العسكرى ، وتوبته من سياسته السابقة ، واخلاصه للسياسة الجديدة فى روسيا ، وكراهيته لحلفائه السابقين ، شهود عاره وعذابه النفسى ، قد حثته على الحرب .

ان الجرأة وسلامة النية والاحساس بالشرف قد اصطدمت فى شخص ايغور بقصر نظره ، وكان حبه لوطنه يتداخل مع عدم وجود تصور واضح لديه عن ضرورة الوحدة والكفاح المشترك . لقد نفذ ايغور الحملة بشجاعة خارقة ، لكنه لم يخضع كل نشاطه من أجل مصلحة الوطن ، انه لم يستطع أن يتخلى عن طموحه الى المجد الشخصى ، فجره هذا الى هزيمة ، لم يسبق للجيوش الروسية ان منيت بمثيل لها . فلأول مرة فى تاريخ الصراع ضد القفجق يقع امراء روس — ايغور واخوه فسيفولود — فى الأسر ، ولأول مرة تتكبد القوات الروسية مثل هذه الهزيمة الشنيعة . هنا تكمن

مزايا التراجيديا النادرة ، التى اتصفت بها حملة ايغور بن سفياتوسلاف — التراجيديا التى جذبت اليها انتباه مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» والمؤرخين ، الذين الفوا عنها القصص فى انحاء مختلفة من الأرض الروسية ، فجاءت هذه القصص أوسع ، وربما ، أكثر حيوية من اى قصة كتبت عن حملات الامراء الروس على السهوب .

حملة إيغور بن سفياتوسلاف من نوفغورود-سيفرسكي

وصلتنا قصتان فى ديوانين مختلفين من دواوين الأخبار عن حملة ايغور بن سفياتوسلاف عام ١١٨٥ . من هذين النصين يمكننا أن نرسم صورة واضحة عن حملة ايغور .

فى الثالث والعشرين من نيسان عام ١١٨٥ ، فى يوم الثلاثاء ، انطلق كل من ايغور بن سفياتوسلاف أمير نوفغورود-سيفرسكى ، وابنه فلاديمير أمير بوتيفل ،

وابن أخيه سفياتوسلاف بن أوليغ أمير ريلسك بالاضافة الى فرقة الكوفوى ، التى ارسلها ياروسلاف بن فسيفولود أمير تشرنيغوف بقيادة أولستين بن اولكسى ، فى حملة على السهوب البعيدة ضد القفجق بدون الاتفاق مع أمير كييف سفياتوسلاف . سارت الخيول المعلوفة شتاء ببطء . سار ايغور على فرسه جامعا حرسه . فى الأول من أيار ، عندما مال النهار الى الغروب ، وهم فى مسيرهم على ضفاف الدونيتس ، باغتهم كسوف الشمس ، الذى كان يعتبر فى ذلك العصر فأل شر ، لكن ايغور لم يرد الخيل على أعقابها . انتظر ايغور أخاه فسيفولود ، الذى سار من كورسك بطريق آخر ، يومين قرب نهر أوسكول . من أوسكول ساروا الى نهر سالنيتسا .

لم يستطع ايغور أن يباغت القفجق على غفلة منهم : فان الحراس الذين أرسلوا للقبض على «لسان» (أى القبض على أحد جنود الأعداء من أجل الحصول على المعلومات اللازمة عن العدو : عدده ، اسلحته ، خططه الخ . **المترجم**) على غير انتظار اخبروا ايغور أن القفجق مسلحون ومتأهبون للقتال . لكن ايغور قال : «ان نحن رجعنا بدون قتال ، كان العار بالنسبة لنا

اشد من الموت» . بعد أن وافقوه على ما قال ، لم يبت الروس ليلتهم ، بل ساروا طوال الليل . فى اليوم الثانى ظهرا التقت القوات الروسية بفيالق القفجق . أرجع القفجق خيامهم المتحركة (خيام منصوبة على عربات) الى مكانها الأول ، أما هم فقد اجتمعوا «من صغيرهم الى كبيرهم» واصطفوا على الضفة المقابلة لنهر سوؤرلى . لقد اصطف جيش ايغور فى ست فرق . القى بعد ذلك ايغور ، على عادة ذلك العصر ، كلمة قصيرة مشجعة : «يا أخوتى ، هذا ما نشدناه ، فلنقدم عليه اذا» . وقفت فرقة ايغور فى الوسط ، على يمينه وقفت فرقة الثور الأهوج فسيفولود (ﻫ ١٧ ، ١٨) ، وعلى شماله — فرقة ابن أخيه سفياتوسلاف ، وامامه — فرقة ابنه فلاديمير وفرقة الكوفوى . اصطف خيرة الرماة ، الذين استنقوا من كل الفرق ، امام الصفوف . صف القفجق رماتهم ايضا ، و«اطلق كل منهم سهما» ، اى أن القفجق ، عند ما اطلقوا سهامهم دفعة واحدة ، هربوا . هربت كذلك أفواج القفجق ، التى كانت مصطفة بعيدا عن النهر . فبدأت افواج الكوفوى وافواج فلاديمير بن ايغور تطارد القفجق . أما ايغور وفسيفولود

فسارا ببطء محافظين على التشكيلات القتالية لفرقهم . لقد استولى المقاتلون الروس على خيام القفجق ، اسروا وسبوا . وتولى قسم من القوات مطاردة القفجق بعيدا وعاد ليلا مع أسرى .

يحدثنا ديوان ايباتيفسكى للأخبار ، انه مع فجر اليوم الثانى ، أى بعد الأنتصار الأول على القفجق ، قامت فرق القفجق ، التى كانت «كالغابة» فى عددها ، بهجوم مفاجئ على الروس . لقد ادرك الجيش الروسى الصغير أنه قد جمع ضد نفسه «كل أرض القفجق» . وفى هذه المرة ايضا لم يعمل ايغور الشجاع على رد فرقه والرجوع بها . لقد تجلت فى خطبته قبيل المعركة رعايته «لسواد الناس» ، أى الجنود البسطاء من الفلاحين ، الذين كانوا عادة يؤلفون أفواج المشاة ، فقال : «اذا هربنا نحن ، نجونا بأنفسنا ، لكننا سنترك سواد الناس . ان هذا اثم سنرتكبه أمام الرب : نجونا بغدرنا لهم . اما أن نموت جميعا أو نبقى أحياء فى مكان واحد» . أمر ايغور الفرسان أن يسرعوا ويقاتلوا مع الآخرين ، كى لا يسرع احد الى الانسحاب أو أن يتخلف عنه عند ما يشقون طريقهم الى الدونيتس .

شق ايغور طريقه مع جيشه الى الدونيتس فى ثلاث أيام بلياليها . واصيب ايغور خلال المعركة بجرح فى يده اليمنى . وقد اضنى العطش المحاربين الروس ، لان القفجق سدوا الطريق عليهم ومنعوهم من الوصول الى الماء . كانت الخيل أول من اعياها العطش . سقط من الأفواج الروسية عدد كبير من القتلى والجرحى ، لكنهم صمدوا وقاتلوا بعنف الى المساء ، قاتلوا ليلة ثانية ، وعند فجر يوم الأحد جفلت أفواج الكوفوى وولت الأدبار ، فأطلق ايغور العنان لفرسه فى اثرهم كى يوقفهم ، وقد خلع خوذته كى يتعرفوا عليه ، لكن ذلك لم يجدِ نفعا . فى طريق عودته ، وقد أعياه الجرح ، قبض عليه القفجق وأسروه وهو على مرمى سهم من فوجه . بعد وقوعه فى الأسر رأى ايغور أخاه فسيفولود يقاتل بعنف على رأس جيشه . وحسب كلمات المؤرخ ، تمنى ايغور الموت على أن يرى مصرع أخيه . أصبح ايغور فى كفالة حليفه السابق كونتشاك . لم ينج من الموت من الجيش الروسى سوى خمسة عشر شخصا ، أما البقية فماتوا غرقا .

فى ذلك الوقت كان سفياتوسلاف بن فسيفولود

يجمع القوات فى أراضيه «العليا» ، لأنه قرر أن يسير على رأس جيش ضد القفجق على الدون طيلة فترة الصيف . فى طريق عودته سمع سفياتوسلاف قرب مدينة نوفغورود–سيفرسكى أن أبناء عمه قد ساروا الى القفجق بجيش بالسر منه ، «فتكدر» جدا . وعندما اقترب سفياتوسلاف بسفنه من مدينة تشرنيغوف علم بهزيمة ايغور ، «فتنهد بعمق» و«مسح دموعه» وقال : «يا أخوتى الأعزاء ، ويا أبنائى ويا رجال الأرض الروسية ! لقد ساعدنى الرب فى انهاك الوثنيين ، لكنكم لم تكبحوا حماس الشباب ففتحتم الباب على الأرض الروسية . لتكن ارادة الرب فى كل شىء ! انى قد تكدرت على ايغور من قبل ، أما الآن ، فانى أبكيه ، أبكى أخى» .

لقد حدد سفياتوسلاف بالضبط فى هذه الكلمات ما ستجره هزيمة ايغور من عواقب وخيمة على روسيا . ان سفياتوسلاف «أنهك» الوثنيين فى حملته عام ١١٨٤ ، لكن ايغور «لم يكبح حماس الشباب» ، فصفى نتائجها ، عندما «فتح الباب» للقفجق على الأرض الروسية . لقد انتشر الشجن والحزن الشديد فى كل أرض

روسيا لدرجة أنه «لم يعد يعز على أحد حتى الأقربين اليه» — كما يقول المؤرخ .

بعد أن انتصر القفجق على ايغور واخوته «انتفخت أوداجهم زهواً» ، فجمعوا كل شعبهم كي ينقضوا على الأرض الروسية . كان بينهم جدال : كونتشاك اراد أن يغزو كييف من أجل ان يثأر للخان بونياك ولجده الخان شاروكان ، اللذين دحرا عام ١١٠٦ ، أما غزاك فأقترح أن يسيروا الى نهر سيم «حيث بقيت نساؤهم (النساء الروسيات . **المترجم**) واطفالهم : فالسبى لنا جاهز ، سوف نأخذ المدن بلا خوف» .

وهكذا انقسموا الى قسمين : كونتشاك سار نحو مدينة بيرياسلافل-يوجنى ، حاصر المدينة وقاتل طيلة اليوم .

كان أمير بيرياسلافل فى ذلك الوقت فلاديمير بن غليب . كان «شجاعاً وقوياً فى القتال» ، فخرج من المدينة وانقض على القفجق ، لكن نفرا قليلا من فرسانه حذوا حذوه وخرجوا لقتال القفجق . لقد قاتل الأمير الأعداء بشدة ، لكنه طوق وجرح بثلاثة رماح . عندئذ خرج البقية من المدينة ووصلوا فى الوقت

المناسب ، فانتزعوا الأمير . بعث فلاديمير من المدينة المحاصرة رسولا لسفياتوسلاف أمير كييف ولريوريك ودافيد ابنى روستيسلاف يخبرهم : «ان القفجق عندى ، فساعدونى» . حدثت اختلافات بين قوات ريوريك ودافيد ، ففرسان دافيد «بدأوا يتشاورون» ، ثم رفضوا المسير مع القوات الأخرى الى مدينة بيرياسلافل لرد القفجق عنها . سار سفياتوسلاف وريوريك بسفنهما فى نهر الدنيبر ضد القفجق ، اما دافيد فرجع قافلا بقواته الى مدينة سمولينسك . عندما سمع القفجق عن اقتراب قوات سفياتوسلاف وريوريك ، انسحبوا من بيرياسلافل ، وفى طريق العودة حاصروا مدينة ريموف . ان كل هذه الحوادث وجدت لها انعكاسا فى «الكلمة عن حملة ايغور» .

تمتع ايغور بنوع من الحرية والاحترام فى الأسر . فقد عينوا له عشرين حارسا . لكن هؤلاء الحراس لم يعيقوا تحركاته أنى أراد ، وكانوا يطيعونه ، عندما كان يرسلهم الى أى مكان يريد . كان ايغور يذهب معهم للصيد بالبواشق . وعرض احد المقاتلين القفجق يدعى لافر ، على ايغور الهرب . رفض ايغور فى البداية

أن يذهب «بطريقة غير مشرفة» ، لكن الظروف فى نهاية المطاف اجبرته على الهرب : فلقد أخبره ابن احد القادة والسائس ، اللذان كانا معه فى الأسر ، أن القفجق بعد انسحابهم من بيرياسلافل عازمون على قتل كل الأسرى الروس . اما وقت الهرب فقد أختير أن يكون مساء — عند غروب الشمس . أرسل ايغور سائسه الى لافر يؤمره أن يعبر الى ضفة النهر الأخرى مع فرس ملجمة . احتسى القفجق ، الذين كانوا يحرسون ايغور ، الكوميس (شراب مخمّر كانت تصنعه فى الأصل قبائل آسيا الوسطى من لبن الفرس . **المترجم**) ، فأنتشوا ولعبوا كالعادة ، حاسبين أن الأمير نائم . رفع ايغور طرف الخيمة وخرج ، ثم عبر النهر ، ركب هناك الفرس وهرب مع لافر .

بعد أحد عشر يوما من السير وصل ايغور الى المدينة الحدودية دونيتس ، ناجيا من المطاردة . بعد أن وصل الى نوفغورود سيفرسكى ، ذهب الى تشرنيغوف وكييف باحثا عن المساعدة والدعم ، واينما حلّ كان يستقبل بالفرح .

الفترة التى ألفت فيها
«الكلمة عن حملة إيغور»

ان «الكلمة عن حملة ايغور» قد كتبت بعد أحداث حملة ايغور بوقت قصير . فهى قد كتبت تحت انطباع حديث العهد عما جرى . انها ليست من القصص التاريخية عن الماضى السحيق ، بل انها صدى لأحداث عصرها . يتوجه مؤلف «الكلمة» فى نتاجه الى الذين عاصروا الأحداث وكانوا على معرفة بها . ولهذا فان «الكلمة» قد حيكت من التلميح والتذكير والأشارات المبهمة الى أحداث ما زالت طرية فى ذاكرة القارئ المعاصر آنذاك .

هناك اشارات اكثر دقة فى «الكلمة عن حملة ايغور» تدل على أن هذا العمل قد كتب فى أثر الأحداث الموصوفة فيه . ففى عام ١١٩٦ مات الثور الأهوج فسيفولود ، فى عام ١١٩٨ أصبح ايغور أميرا على تشرنيغوف ، لكنه قبل ذلك سار من جديد فى حملات ضد القفجق . وان لم يرد لهذه الحملات ذكر فى «الكلمة» . لم تذكر كذلك أحداث أخرى من التاريخ

الروسى جرت بعد عام ١١٨٧ . اذ ان مؤلف «الكلمة» يذكر فى تعداد الأمراء الأحياء ياروسلاف أوسموميسل أمير غاليتش ، الذى مات عام ١١٨٧ ، فهو يهيب به أن «يسدد سهامه» الى كونتشاك «انتقاما للأرض الروسية ، انتقاما لجراح ايغور بن سفياتوسلاف الصنديد» . من هنا يتضح أن «الكلمة» لم تكتب بعد عام ١١٨٧ . من جهة أخرى أنها لم تكن مكتوبة قبل ١١٨٧ ، لأنها تحتوى على «تمجيد» للأمراء الصغار ومن ضمنهم الأمير فلاديمير بن ايغور ، الذى عاد من الأسر فى ذلك العام ، اى فى ١١٨٧ . لهذه الأسباب يمكننا الافتراض بأن «الكلمة عن حملة ايغور» قد كتبت فى عام ١١٨٧ .

«الكلمة عن حملة ايغور» — نداء الى الوحدة

ان «الكلمة عن حملة ايغور» ما هى الا صدى مباشرا لأحداث تاريخية : اذ كانت نداء لانهاء

الحروب والفتن الداخلية بين الأمراء الروس ، نداء الى الوحدة لمجابهة الخطر الخارجى المريع . وحسب تعبير كارل ماركس الدقيق ، ان «مغزى الملحمة — هو دعوة الأمراء الروس الى الوحدة بالضبط قبيل غزو المغول» * .

وان هذا النداء يكوّن محتوى «الكلمة عن حملة ايغور» الأساسى . ويستشهد المؤلف بالهزيمة التى منى بها ايغور لتبيان العواقب الوخيمة الناشئة عن التجزأة السياسية لروسيا .

لا تقتصر «الكلمة عن حملة ايغور» على سرد الأحداث التى رافقت الحرب التى خاضها ايغور ضد القفجق ، بل وتقيّمها . انها تمثل خطبة حماسية ومؤثرة لأنسان محب لوطنه : فهو مرة يستقى من احداث عصره الحى ، ومرة يذكر أخبار الماضى السحيق . انها خطبة — تبدو تارة ساخطة وأخرى غاضبة ومريرة وكئيبة ، لكنها دوما مفعمة بروح الايمان بالوطن مليئة

* ماركس وانجلس . المؤلفات . المجلد ٢٢ ، ص ١٢٢ . الطبعة الروسية .

بالفخر به واليقين بمستقبله الزاهر .
يتوجه مؤلف «الكلمة» دائما الى قرائه داعيا اياهم بـ«الأخوان» وكأنه يراهم أمامه . وهو يستحضر فى خياله معاصريه ورجالات الماضى ليخاطبهم . فهو يتوجه بالكلام الى بويان : «آه ! يا بويان ! يا بلبل العصر القديم ! انك لتغنيت حقا بتلك الحملات» ، ويوجه كلامه الى الثور الأهوج فسيفولود : «يأيها الثور الجسور فسيفولود ! انك واقف فى قلب المعركة منيعا ، ترشق الكماة بسهامك وتجلجل بسيوفك الفولاذية على خوذهم» . انه يتوجه بالحديث الى ايغور والى فسيفولود أمير سوزدال والى ريوريك ودافيد ابنى روستيسلاف والى كثيرين آخرين وحينما يتكلم المؤلف عن النُذُر التى سبقت حملة ايغور ، والتى رافقت ايغور فى طريقه المهلك ، فكأنه يريد أن يوقفه ، وبذلك يدخل القارئ الى جو الحملة الباعث على القلق . فهو يقطع حديثه بنداءات استغاثة وتعجب : «وا أرض روسية ! انك اضحيت خلف التل !» ، «هذا ما كان فى تلك المعارك وفى تلك الحملات . أما بمثل هذه فلم نسمع قط !» . كل هذا يوحى بالتقارب

المباشر بين مؤلف «الكلمة» وبين اولئك الأشخاص الذين يخاطبهم .
وهذا التقارب هو اكثر من تقارب الكاتب الى قارئه ، بل أنه تقارب الخطيب او المغنى ، الذى يواجه مستمعيه مباشرة .
حينما يقرأ المرء «الكلمة عن حملة ايغور» فانه يشعر بحماس من أن المؤلف أراد لها ، قبل كل شىء ، أن يُنطق بها بصوت مسموع .
لكن من الخطأ اعتبار أن «الكلمة عن حملة ايغور» قد خصصت من أجل النطق بها أو قراءتها فقط ، فليس من المستبعد احتمال أن المؤلف قد خصص نتاجه وللغناء أيضاً . وبالرغم من أن مؤلف «الكلمة» يطلق بغموض كبير التسميات على نتاجه — فيسميه تارة «بالكلمة» ، وتارة «بالاغنية» ، وأخرى «بالقصة» ، إلا أنه عند اختياره لأسلوبه الشعرى ، كان يعتبره على نمط اسلوب أحد اسلافه الأوائل ، لا من الكتاب أو الخطباء المعروفين لديه فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، بل على نمط اسلوب بويان — المغنى والشاعر ، الذى كان ينشد مؤلفاته

على ايقاع من آلة وترية ، — ربما تكون الغوسلى * .
ان مؤلف «الكلمة» يعتبر بويان سلفاً له فى صيغة الشعر ، التى ينظم فيها نفسه .

واذاً فان «الكلمة عن حملة ايغور» — ما هى الا دعوة الى الوحدة . انها بالتأكيد قد كتبت من قبل مؤلف ، وان المؤلف كان يشعر بالصلة التى ترتبطه بالكلام المسموع وبالشعر الشعبى ؛ وان المؤلف كان يشعر من أن نتاجه قد خلق من أجل النطق . لكن من الصعوبة أن نجزم : هل أنه قد خصص من أجل النطق به بصوت مسموع كالحديث ، أم انه قد خصص للغناء . فاذا كان المؤلَّف حديثاً ، فان له شبه بالاغنية ، أما اذا كان اغنية ، فانها قريبة الى الحديث .

للأسف الشديد لا يمكننا أن نحدد بالضبط شكل «الكلمة» الأدبى : هل هى «قصيدة» ، أم «انشودة» ، أم «قصة» ؟ انها مكتوبة باسلوب يحفظ سحر وفتنة

* الغوسلى — آلة موسيقية وترية قديمة تشبه الى حد بعيد العود أو القانون . **المترجم** .

الكلام الشفهى الحى الملىء بالحب الصادق والصافى والقلبى للوطن .

ان المغزى الحقيقى لنداء مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» يكمن لا فى محاولة تنظيم هذه الحملة أو تلك فقط ، بل وفى توحيد الرأى العام الروسى ضد خصومات الأمراء الأقطاعية ، والتشهير بالأفكار الأقطاعية الضارة بين اوساط الرأى العام ، وتعبئته ضد أطماع الأمراء فى «المجد» الفردى و«الشرف» الفردى ، وضد ثأرهم «لضيومهم» الفردية . ان مهمة «الكلمة» لا تكمن فى التلاحم العسكرى لكل الناس الروس الطيبين وحسب ، بل وفى تلاحمهم الفكرى ايضا حول فكرة وحدة الأرض الروسية .

عقيدة مؤلف «الكلمة عن حملة إيغور» السياسية

أى نوع من الوحدة لروسيا تراءى لمؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» والتى دعا قراءه لها ؟ لقد تراءت

وحدة روسيا لمؤلف «الكلمة» لا فى شكل علاقات «حسن الجوار» الطيبة لكل الأمراء الروس على اساس ارادتهم الطيبة . طبعا ، كان من المستحيل بحال اقناع الأمراء الروس بالتوقف عن العداء فيما بينهم . كانت الضرورة تتطلب سلطة مركزية قوية بامكانها أن توطد وحدة روسيا ، وتجعل من روسيا دولة قوية . ان مؤلف «الكلمة» من أنصار الحكم الأميرى القوى ، الذى يكون بامكانه أن يردع استبداد الأمراء الصغار .

لقد ذهب المؤلف الى أن كييف يجب أن تكون مركز روسيا الموحدة . فهو يتصور أمير كييف حاكما قويا و«رهيبا» . ولهذا نرى أنه قد خص أمير كييف «الضعيف» سفياتوسلاف بن فسيفولود بالصفات المثالية كزعيم لكل الأمراء الروس : فهو «رهيب» و«عظيم» .

عندما توجه مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» بندائه الى الأمراء الروس ان يهبّوا للدفاع عن الأرض الروسية ، أخذ يذّكرهم بجبروتهم العسكرى وكأنه يرسم فى مخيلته صورة جامعة للأمير القوى والجبار . فهذا الأمير قوى بجيشه : انه «صاحب العساكر الوفيرة» ،

انه قوى بحكمة : «مدبرا دفة الحكم الى الدانوب» ، انه يزرع الخوف والهلع فى البلدان المجاورة لروسيا ، فهو يستطيع «أن ينثر مياه الفولغا بالمجاذيف ، وأن يغرف مياه الدون بالخوذ» ، انه «قد أقفل الجبال الهنغارية بفيالقه الحديدية ، قاطعا الطريق على الملك ، موصدا بوابة الدانوب» ، انه ذو شهرة واسعة فى البلدان الأخرى ، فله صار «الألمان والفينيسيون» ، «اليونانيون والتشيك» ينشدون أغانى المجد .

أمامنا صورة واضحة للأمير ، الذى تجسدت فيه فكرة السلطة الأميرية القوية ، التى بواسطتها يمكن أن تتحقق وحدة الأرض الروسية . ان ولادة فكرة السلطة الأميرية الموحدة بدأت تظهر فقط فى القرن الثانى عشر . فيما بعد انعكست صورة هذا الأمير «الرهيب» العظيم فى سيرة الكسندر نيفسكى * وفى

* الكسندر نيفسكى (١٢٢٠ — ١٢٦٣) — أمير نوفغورود فى أعوام ١٢٣٦ — ١٢٥١ ، من عام ١٢٥٢ أصبح أميرا عظيما على أمارة فلاديمير — ابن الأمير ياروسلاف الثانى . انه بانتصاراته على السويديين (المعركة على نهر النيفا عام ١٢٤٠ ،

مؤلفات القرن الثالث عشر الأخرى . ان انتقال مركز روسيا الى الشمال الشرقى وانهيار أهمية عرش كييف اخذت تتضح اكثر فأكثر . فان مركز نفوذ الأرض الروسية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر سينتقل الى موسكو التى بدورها توحد روسيا بمساعدة السلطة القوية لأميرها .

ان السلطة الأميرية القوية أخذت تظهر فى القرن الثانى عشر رويدا رويدا ، وكان مقسوما لها أن تتطور فى المستقبل ، وان مؤلف «الكلمة عن حملة

ومن هنا لقبه بـ«نيفسكي» . يمر هذا النهر بمدينة لينينغراد الحالية) وعلى الفرسان الصليبيين الألمان (المذبحة الجليدية ، التى وقعت على بحيرة تشودسكويه المغطاة بالجليد شتاء وربيعا ، فى الخامس من نيسان عام ١٢٤٢ . تهشم جليد البحيرة تحت ثقل الفرسان الألمان ، عندما اجبرهم الروس على التقهقر ، فغرقوا جميعا ، لأن طبقة الجليد فى الربيع تكون رقيقة جدا ولا تتحمل ثقلا كبيرا) قد أمّن على حدود روسيا الغربية . وانه بسياسته الرشيدة قد خفف من عبء الجور المغولى التترى . **المترجم** .

ايغور» قد رأى أن السبيل لتوحيد روسيا وكيل الضربات القاضية لأعدائها الخارجيين سيتم عن طريق السلطة الأميرية القوية .

صورة الأرض الروسية فى «الكلمة عن حملة إيغور»

جسد مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» نداءه الى الوحدة وشعوره بضرورة توحيد أرض الوطن بتلك الصورة الحية والملموسة التى يصف بها الأرض الروسية . ان «الكلمة» مكرسة للأرض الروسية بأكملها ، وان بطل «الكلمة» هو الشعب الروسى والأرض الروسية لا أمير من الأمراء . فلها ، أى للأرض الروسية موجهه كل أحاسيس ومشاعر المؤلف . فصورة الأرض الروسية — هى الصورة المركزية فى «الكلمة» ، وانها قد رسمت من قبل المؤلف بصورة ضافية وبلا تكلف .

يصور مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» رحابة

الأرض الروسية الواسعة ، انه يشعر بالوطن كوحدة هائلة كاملة .

من الصعوبة أن نجد في الأدب العالمي أثرا أدبيا تشغل أحداثه في آن واحد مساحات جغرافية شاسعة كالتي ذكرت في «الكلمة» : سهوب القفجق («الأرض الغربية») ، «البحر الازرق» ، أنهر الدون والفولغا والدنيبر والدونيتس ، والدانوب ودفينا الغربية وروس وسولا وستوغنا ونيميغا ، مدن كورسون ، وتموتوروكان وكييف وبولوتسك وتشرنيغوف وكورسك وبيرياسلافل وبيلغورود ونوفغورود وغاليتش وبوتيفل وريموف ومدن أخرى كثيرة — أي أن كل الأرض الروسية واقعة في مجال نظر المؤلف وداخلة في سرد قصته . ان اتساع الأرض الروسية يشار اليها بالأحداث الجارية في آن واحد في اماكن مختلفة منها : «الصبايا يغنين على الدانوب ، فتحلق أصواتهن عبر البحر الى كييف» ، وفي آن واحد وبصورة موازية لمسير قوات ايغور يندفع القفجق الى الدون «بدروب غير ممهدة» ، حيث يسمع لعرباتهم غير المدهونة صرير لا يطاق .

كأن المساحات الشاسعة ، التي تدور فيها أحداث

«الكلمة» تتحد جراء السرعة المذهلة لتنقل أبطال القصة من مكان الى آخر ، كما هي الحال مع تنقلات الأمير فسيسلاف . فان فسيسلاف قد مس بالرمح عرش كييف الذهبي ، وثب منه كوحش عات ، وفي منتصف الليل من بيلغورود اختفى في الظلمة الزرقاء ، وانه عندما نهض في الصباح ، فتح بالسلاح بوابة نوفغورود ، فهشم مجد ياروسلاف . . . وان الأمير فسيسلاف قد قضى بين الناس ، ووهب المدن للامراء ، أما هو فكالذئب كان يطوف في الليل : فمن كييف كان يصل تموتوروكان قبيل صياح الديكة ؛ وكالذئب كان يعدو فيقطع طريق خورس (الشمس) العظيم ، أما سفياتوسلاف فكالاعصار انتزع كوبياك الوثني من الساحل من بين جيوش القفجق الحديدية العظيمة ، ووقع كوبياك في مدينة كييف ، في بهو ياروسلاف .

يتخذ جبروت أبطال «الكلمة عن حملة ايغور» في أراضي روسيا الشاسعة ابعاداً مبالغاً فيها : ففلاديمير الأول ابن سفياتوسلاف لم يكن بالمستطاع تثبيته على هضاب كييف . والغاليتسكي ياروسلاف قد أقفل

الجبال الهنغارية بفيالقه الحديدية ، قاطعاً الطريق على الملك ، موصداً بوابة الدانوب .

وبمثل هذه الجزالة تمتاز المناظر المرسومة للطبيعة فى «الكلمة عن حملة ايغور» ، فهى دائما ملموسة وكأنها آخذة فى الحركة : فقبل المعركة مع القفجق يعلن الفجر الدموى عن نوره ، وان السحب السوداء تنطلق من البحر . . . سيحدث رعد عظيم ، وكالسهام سينزل مطر من الدون العظيم . . . الأرض تدوى ، والأنهار تجرى عكرة ، والغبار يغطى السهول . أما بعد اندحار جيش ايغور فان كآبة عظيمة قد تدفقت فى روسيا .

كذلك أن الرياح والشمس والغيوم المرعدة التى يلمع فيها البرق الازرق ، وضباب الصباح ، والغيوم الماطرة ، وغناء العنادل ليلا ، وصياح الزيغان صباحاً ، والغسق والفجر ، والبحر ، والاخاديد ، والأنهر تؤلف مسرحاً واسعاً جداً وغير اعتيادى تدور فيه أحداث «الكلمة وتخلق شعوراً بلامحدودية الوطن .

ان المساحة الشاسعة لطبيعتنا الجميلة يمكننا كذلك أن نلمسها بحيوية فى بكاء ياروسلافنا . تخاطب

ياروسلافنا الرياح الهابة تحت السحاب ، الهازة السفن فى البحر الازرق الى الدنيبر ، الذى خرق الجبال الصخرية عبر أراضى القفجق والذى ارجح فى مياهه قوادس سفياتوسلاف الى معسكر كوبياك ، وتخاطب كذلك الشمس ، التى للكل دافئة وجميلة ، لكنها فى قفر قاحل قد ارسلت اشعتها اللاذعة على المقاتلين الروس ، فلوت أقواسهم عطشاً وشدت كنائنهم شجناً .

تشارك الطبيعة الروسية باجمعها فى افراح الشعب الروسى وفى احزانه : فمفهوم الوطن — الأرض الروسية — يشمل ، بالنسبة للمؤلف ، على تأريخه ، وعلى «البلدان» ، أى الأرياف والمدن والأنهار وكل الطبيعة الروسية الحية والحنونة على أبنائها الروس . فالشمس تغطى طريق الأمير بظلام دامس — انها تنذره بالخطر . أما الدونيتس فيفرش لايغور الهارب من الأسر فراشاً أخضر على ضفافه الفضية ويلبسه الضباب الدافئ ، ويحرسه بالعلاجيم والبطات البرية .

كلما توسع المؤلف بحضن الأرض الروسية ، كلما اضحت صورتها ملموسة اكثر وحيوية اكثر : ففيها تُبعث الحياة فى الأنهار ، التى تتجاذب أطراف

الحديث مع ايغور ، وفيها يُوهَب الادراك البشرى للوحش والطير .

أما الشعور برحابة اجواء الوطن وسعة أراضيه ، الذى يكمن دائماً فى «الكلمة عن حملة ايغور» فيزداد قوة بواسطة الصور الكثيرة من الصيد بالصقور ، ومساهمة الطيور (الوز ، البط ، الغربان ، الزيغان ، العنادل ، الوقواق ، التم ، السنقور) التى تقطع المسافات الطويلة الى الدون والى البحر الأزرق عبر السهول الواسعة . ان ذكر البحر المستمر يزيد من هذا الشعور .

كأن المؤلف يرى ويسمع بكل ما يدور فى الأرض الروسية وهو يعمها بنظرة من ذهنه . يتحدث مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» عن تفاصيل الحياة ابان الحملات ، وعن أساليب الدفاع والهجوم ، ويشير الى سلوك الطيور والوحوش .

وكأن صور الوطن المكتظ بالمدن والأنهار وعدد السكان الكبير يعارض بها صورة سهوب القفجق الصحراوية ـ تلك «البلاد الغريبة» باخاديدها وهضابها ومستنقعاتها وأماكنها «الموحلة» .

ان الأرض الروسية بالنسبة لمؤلف «الكلمة» ليست

«الأرض» فقط ، ليست المدن الروسية وحسب ، بل ، وفى المقام الأول ، الشعب الذى يسكنها . فالمؤلف يتكلم عن العمل السلمى «للحراث» الروس ، الذى كانت تعكره حروب الأمراء الداخلية ، وعن زوجات المقاتلين الروس ، اللواتى ندبن أزواجهن ، الذين استشهدوا فى سبيل روسيا ، وعلى مصيبة كل الشعب الروسى بعد هزيمة ايغور ، وعن هلاك ثروة الشعب الروسى ، وعن فرحه وابتهاج سكان المدن والأرياف بعودة ايغور من الأسر سالما .

ان جنود ايغور أمير نوفغورود ـ سيفرسكى هم ، قبل كل شىء ، ابناء روسيا ، انهم ساروا الى القفجق من اجل الوطن ، وانهم ، عندما عبروا الدون قد ودعوا الأرض الروسية بأكملها لا أمارة نوفغورود ـ سيفرسكى أو كورسك أو بوتيفل وحدها : «وا أرض روسيا ! انك اضحيت خلف التل !» .

بالاضافة الى ذلك أن مفهوم الوطن بالنسبة للمؤلف يشمل أيضا تاريخه . ففى بداية «الكلمة» يقول المؤلف أنه ينوى أن يبدأ حديثه «من فلاديمير القديم (فلاديمير الأول بن سفياتوسلاف ه ٧) الى ايغور

الحالى» . وعندما يسرد المؤلف قصة حملة الأمير ايغور الفاشلة ، فأنه يتعرض لأحداث الحياة الروسية لفترة قرن ونصف من الزمن ، «حائكا مجد كلا نصفى هذا الزمان» ، دائم التنقل من الزمن المعاصر الى التاريخ ، مقارنا الازمنة الماضية بالحاضرة . يذكّر المؤلف بعصور ترويان وسنين ياروسلاف وحروب أوليغ ، وبزمن «فلاديمير القديم» ابن سفياتوسلاف .

يرسم مؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» صورة حية جداً للأرض الروسية ، فانه استطاع بتأليفه «للكلمة» أن يلقى نظرة على روسيا بأكمالها ، وأن يشمل فى وصفه الطبيعة الروسية والناس الروس والتأريخ الروسى . ان صورة الوطن الذى يعانى الأمرين من التجزئة مهمة جداً من ناحية المعنى الفنى والفكرى «للكلمة» : فالمؤلف يثير عطف القارئ نحو وطنه ، ويهيج الكراهية ضد أعدائه ، وتدعو الناس الروس للدفاع عنه . وتعتبر صورة الارض الروسية الجزء الهام من «الكلمة» ، لأنها بمثابة النداء للذود عن حياضها ضد الغزاة .

ان «الكلمة عن حملة ايغور» — أثر أدبى متكامل بصورة مدهشة ، وان صيغتها الفنية تطابق بدقة متناهية

فكرتها العقائدية . ان كل صور «الكلمة» تساعد على ابراز الفكرة الأساسية لها ، وهى فكرة وحدة روسيا .

صورة الأمراء الروس فى «الكلمة عن حملة إيغور»

لمؤلف «الكلمة عن حملة ايغور» موقف مزدوج من الأمراء الروس : فهو يرى فيهم ممثلين لروسيا ، فيعطف عليهم ويفتخر بنجاحاتهم ويتكدر لاخفاقاتهم ، لكنه يدين سياستهم المحلية الأنانية الضيقة وخصوماتهم وعدم رغبتهم فى الدفاع عن الأرض الروسية متكاتفين .

يبيّن المؤلف الى ماذا يمكن أن يقود انعدام الوحدة السياسية متمثلا بحملة ايغور بن سفياتوسلاف أمير نوفغورود—سيفرسكى الفاشلة . لقد دحر ايغور فقط لأنه سار الى الحرب لوحده . انه عمل بالصيغة الاقطاعية : «نحن لأنفسنا وأنت لنفسك» . ان كلمات سفياتوسلاف أمير كييف الموجهة الى ايغور توضح الى

حد ما موقف مؤلف «الكلمة» منه . يوجه سفياتوسلاف اللوم الى ايغور وفسيفولود ، لأنهما بدون أن يتفقا معه سارا فى حملتهما من أجل المجد لنفسيهما . انه يلومهما ، لأنهما أرادا ان يسرقا مجد انتصاراته على القفجق وأن يتقاسما فيما بينهما فقط مجد حملتهما .

على هذا النمط بالذات قد بنى الحديث كله عن حملة ايغور . ان ايغور الشجاع والقصير النظر معا يسير على رأس جيش ، بالرغم من أنه يعلم منذ البداية أن هذه الحملة مكتوب لها الفشل ؛ انه يسير بالرغم من كل «نذر» الشؤم . ان ايغور يحب وطنه روسيا ، لكن الحافز الاساسى كان سعيه من أجل مجده الشخصى . فأيغور يقول : «يا اخوانى ، ويا جندى ! من الأفضل أن نكون قتلى على أن نكون أسرى ؛ لنركب اذا ، يا اخوان ، خيولنا السريعة ولنشاهد الدون الازرق» ؛ وايضا : «فقال : انى أريد أن اكسر رمحى على تخوم السهب البولوفيتسى ، ومعكم ، يا أبناء روسيا ، اما أن استشهد واما أن أشرب من الدون بخوذتى» . فالرغبة العارمة فى المجد الشخصى قد «جعلت عقله اسيرا» .

لكن المؤلف يشير الى أن أعمال ايغور مرتبطة بمفاهيم محيطة بدرجة اكبر مما هى مرتبطة بخصاله الشخصية . ان ايغور بحد ذاته انسان طيب اكثر مما هو ردىء ، لكن اعماله رديئة ، لأنها واقعة تحت سيطرة الآراء الباطلة للمجتمع الأقطاعى — ايديولوجية الطبقة الحاكمة . ولهذا ظهرت فى المقام الأول فى صورة ايغور الميزات العامة وليست الخاصة . ان ايغور بن سفياتوسلاف أمير «متوسط» من أمراء عصره : شجاع ، ذو مروءة ، يحب وطنه لدرجة ما ، لكنه طائش وليس ببعيد النظر ، مهتم بشرفه الخاص اكثر من شرف وطنه .

لكن ادانة مؤلف «الكلمة» كبيرة جدا بالنسبة لجد ايغور ومنشئ سلالة بنى أوليغ — أوليغ غوريسلافيتش ، حفيد ياروسلاف الحكيم . ان ما قاله المؤلف بحق أوليغ هذا لدليل واضح على ما ارتكبه من جرائم واعمال لا تحمد بحق روسيا : «ان أوليغ هذا قد صاغ المؤامرات بالسيف وزرع الأرض بالسهام» ، وفى عهده «زرعت ونمت بشدة النزاعات الداخلية» فى الأرض الروسية . يرى المؤلف أن مؤامرات أوليغ كانت

قبل كل شيء مهلكة بالنسبة للشعب الكادح بالنسبة للفلاحين : «عندئذ قل فديد الحراث فى كل الأرض الروسية . ان الغربان وحدها باتت تنعق فى الغالب ، وهى تتقاسم الجثث فيما بينها ، أما الزيغان فكانت تتحدث بلسانها وهى تهم بالانقضاض على الغنيمة» .

لقد وصف المؤلف الأمير فسيسلاف (هـ ۸۷ ، ۹۱) أمير بولوتسك ايضا كرائد للحروب والفتن الداخلية . ان النص عن فسيسلاف بكامله ما هو الا تأملات عن مصيره المشؤوم . فالمؤلف يدينه كل الادانة عن الأعمال التى ارتكبها ، وان كان فيه قدر ضئيل جدا من الشفقة عليه . انه «كوحش عات» ، داهية ، «ساحر» منحوس . نحن ازاء صورة ساطعة للغاية لأمير من أمراء التفتت الأقطاعى لروسيا .

أما الأمراء الروس الآخرون فان مؤلف «الكلمة» يشير الى مزاياهم الايجابية اكثر من السلبية ، فهو يشيد بمآثر هؤلاء الأمراء ويصور جبروتهم وعزتهم . نرى أن احلامه عن السلطة القوية فى روسيا وعن جبروت الأمراء الروس العسكرى قد انعكست فى الصورة التى رسمها لهم . فان فلاديمير الأول بن سفياتوسلاف «لم يكن

بالمستطاع تثبيته على هضاب كييف» ، لكثرة ما سار فى حملاته ضد الأعداء ، وان فسيفولود (هـ ۷۱) أمير سوزدال يستطيع أن ينثر مياه الفولغا بالمجاذيف ، وأن يغرف الدون بالخوذ ، أما ياروسلاف اوسموميسل (هـ ۷٦) فقد قفل الجبال الهنغارية بفيالقه الحديدية ، وقطع الطريق على الملك الهنغارى ، وفتح بوابة كييف ، ورمى السلاطين وراء الأراضى .

ربما لم يستخدم مفهوم الأطناب فى «الكلمة عن حملة ايغور» الا بتقييدات كبيرة . ان أثر الاطناب فى «الكلمة» يبدو واضحاً بقدر ما تنقل الى اسم هذا الأمير او ذاك مآثر فرسانه وحرسه فيكلل بها . ومثال ذلك : ان الثور الجسور فسيفولود يرشق الأعداء بالسهام ، ويجلجل بسيوفه الفولاذية على خوذهم ، وان الخوذ الآفارية قد تشققت من سيوفه الحامية . طبعاً ، ان السهام والسيوف والرماح لم تكن ملك فسيفولود الخاص . فمؤلف «الكلمة» يتحدث هنا عن أن فسيفولود يرشق الأعداء بسهام فرسانه ، ويقاتل بسيوفهم ورماحهم . فنرى مثل ذلك النقل لمآثر الفرسان الى أمير وتكليله بها فى حوادث أخرى : فان سفياتوسلاف أمير كييف

قد سحق شراسة القفجق «بجيوشه القوية وسيوفه الفولاذية» ، واذا كان فسيفولود أمير مدينة سوزدال يستطيع أن «يغرف الدون بالخوذ» — فلا يعنى هذا ، بالطبع انه يغرفه بخوذته وحدها ، بل بخوذ جيشه الكثير العدد . اما صور النساء الروسيات فى «الكلمة عن حملة ايغور» فتحتل مكانة خاصة : فهن متسمات بالافكار عن السلم ، عن العائلة والبيت ، متصفات بالنعومة واللطف ، لقد تجسد فيهن حزن وهم الوطن على محاربيه . ان هذه الصور النسوية حسب خطة المؤلف الفكرية تحتل مكانة هامة جدا .

بعد أن دحر جيش ايغور أخذت زوجات المقاتلين الروس يندبن أزواجهن الذين سقطوا فى ساحة المعركة . ان بكاءهن ملىء بالحنان والحزن العميق ويحمل مزية شعبية متأصلة : «لم يبق لنا شىء من احبائنا الاعزاء : فلن نشاركهم الخواطر ، ولن نقاسمهم الافكار ، ولن نراهم بالبواصر» . وهذه المزية الشعبية-الغنائية يحملها ايضا بكاء ياروسلافنا — زوجة الأمير ايغور الفتية . من الجدير بالذكر أن ياروسلافنا (هـ ١٠٢) لم تبك زوجها فقط — انها متفجعة على كل المحاربين الروس الذين قتلوا :

«يأيتها الريح ! يأيتها الريح ! لم ، يا سيدتى ، تهبين مضادة ، لم تسرعين بالسهام الخينوفية على اجنحتك الخفيفة على جند حبيبى ؟ . . نيرة أنت ، وثلاثا نيرة ، أيتها الشمس ! للكل أنت دافئة وجميلة : فلم ، يا مولاتى ، قد أرسلت اشعتك اللاهبة على جند حبيبى ؟» .

ان مناهضة الحرب للسلم ، المجسمة فى صورة النساء الروسيات تبدو واضحة بوجه خاص فى نداء مؤلف «الكلمة» العاطفى الموجه الى الثور الأهوج فسيفولود : فهو فى معمعان المعركة لا يشعر بالجروح التى اصابته ، وانه قد نسى شرفه وحياته و«حب وعناق بنت غليب الجميلة» — حبيبته العزيزة البضة .

وهكذا أن صور الأمراء الروس والنساء الروسيات لم تعط كيفما أتفق — انها تخدم أفكار المؤلف ، تخدم قضية النداء الى الوحدة . وبيد رسام ماهر خطت فكرة سياسية ، فكرة طافحة بحب الوطن .

صورة بويان

فى «الكلمة عن حملة ايغور» تشغل موقعاً متميزاً شخصية الشاعر-المغنى بويان . ان علاقة مؤلف «الكلمة» ببويان معقدة لحد ما : فهو يبدأ مقدمته بذكر بويان ، ويصوره لنا شاعرا عظيما من شعراء العصر الماضى ، لكنه فى الوقت نفسه يرى أنه يستحيل عليه أن يقتدى باسلوب بويان القديم فى الشعر .

ان بويان شاعر «حكيم» — فهو «حفيد» الاله الوثنى فيليس ، وانه «بلبل العصر القديم» . كان بويان يصوغ أغانيه بنفسه وينشدها تحت ايقاع آلة وترية . وكانت اغانيه تمجد الأمراء : اذ كان يغنى «لياروسلاف الكبير» (لياروسلاف الحكيم) ، و«لمستيسلاف الشجاع» أمير تموتوروكان ، و«لرومان بن سفياتوسلاف» . وان أوتاره هى التى أذاعت صيت الأمراء . كان بويان باسلوبه المزوّق يطير بفكره تحت السحاب ، «مرفرفا كالبلبل» على شجرة خيالية ، ويسرع فى مخارم ترويان عبر السهول الى الجبال .

يناهض مؤلف «الكلمة» بانتاجه هذا أشعار بويان :

«لتبدأ هذه (الانشودة) على غرار روايات عصرنا لا وفقا لخيال بويان» ، ومع ما يبديه المؤلف من عميق الأحترام لمجد وعظمة بويان ، فأنه يشدد على عدم امكانية القبول «بكلمات قصص الرثاء الحربى القديم» .

لقد حدد الشاعر الروسى العظيم الكسندر بوشكين (١٧٩٩ — ١٨٣٧) بصورة جيدة هذه الناحية لموقف مؤلف «الكلمة» من بويان فى ملاحظاته التمهيدية لترجمة «الكلمة» والتى ظلت غير منجزة : «ان الشعراء فى كل الازمنة يخشون ملامة التقليد ، وان مبدع «الكلمة عن حملة ايغور» المجهول الهوية لم يلبث أن أعلن فى بدء قصيدته من أنه سيغنى على طريقته الخاصة وبشكل جديد ، لا أن يقتفى آثار بويان القديم» .

وحسب خطة المؤلف الفكرية فأن لصورة بويان معنى جوهريا : فهو يحتاجها من أجل أن يشير الى أنه يقتفى فى كلامه أحداثا واقعية ، وهو يحتاجها أيضا من اجل أن يثبت أن «الكلمة» صادقة ، وأنها لا تعنى بكيل المديح لمآثر الامراء . ان موقف مؤلف

«الكلمة» من الأمراء الروس وبويان ليس سلبيا ، لكن عمله ليس «تمجيدا» أو «مديحا» للأمراء ، وأنه لا يقتفى أساليب بويان فى المديح .

من هو مؤلف «الكلمة عن حملة إيغور» ؟

ربما كان مؤلف «الكلمة» من المقربين للأمير ايغور بن سفياتوسلاف او للأمير سفياتوسلاف حاكم كييف ، لأنه يعطف عليهما . ولربما كان فارسا لأن مفاهيم الفروسية قريبة اليه . انه كان ، بلا شك ، شخصا متعلما وله المام كبير بالتأليف والكتابة ولا يعقل أنه كان منتميا الى الطبقة المستغَلة من الشعب . لكنه فى آرائه السياسية لم يكن من «الحاشية» أو من الفرسان ، أو من المدافعين عن المصالح الأقليمية ، أو من واضعى النظريات لمذاهب الأمراء أو النبلاء أو رجال الدين . ومهما كانت المدينة التى كتبت فيها

«الكلمة» — كييف ، تشرنيغوف ، غاليتش ، بولوتسك أو نوفغورود—سيفرسكى — فأنها لم تؤثر على فحوى «الكلمة» وأفكارها التى لم تجسد أية صفة اقليمية ضيقة . وهذا ناجم ، فى المقام الأول ، عن موقف المؤلف الوطنى المستقل عن الأوساط الحاكمة للمجتمع الاقطاعى . لقد كانت المصالح الاقليمية لهذه الأوساط غريبة عليه ، بعكس ذلك كانت مصالح فئات الشعب العاملة ، التى كانت تسعى فى كل مكان وزمان الى وحدة روسيا ، قريبة منه .

لقد كان مؤلف «الكلمة» معبرا عن أمانى وادارة شعب روسيا العامل ، بالرغم من أنه لم يكن فلاحا أو حرفيا .

أما اسم مؤلف «الكلمة» فمجهول بالنسبة لنا ، وهيهات أن يعرف فى يوم ما . ان كل المحاولات ، التى بذلت من أجل ايضاح ذلك ، لم تخرج عن حدود الفرضيات الركيكة والخيالية جدا .

«الكلمة عن حملة إيغور» فى الأدب الروسى القديم

يتجلى فى كل المسار اللاحق للأدب الروسى القديم أن «الكلمة عن حملة ايغور» كانت متداولة ومعروفة . وعلى سبيل المثال وجد فى أحد الكتب الدينية ، المحفوظة فى المتحف التاريخى فى موسكو والمؤرخة فى عام ١٣٠٧ ، الحاشية التالية : «فى هذا العام اندلعت على الأرض الروسية حرب بين ميخائيل ويورى المتنازعين على أمارة نوفغورود . فى عهد هذين الأميرين تزرع وتنمو الفتن الداخلية ، فهما يهددان حياتنا ، والتى تقصر أعمار الناس أيضا» . ان الشطر الثانى من هذه الحاشية ما هو الا تغيير لصيغة الفقرة التالية من «الكلمة» : «آنذاك ، فى عهد أوليغ غوريسلافيتش ، زرعت ونمت بشدة النزاعات الداخلية ، فهلكت ثروات حفيد داجبوغ ، وقصرت أعمار الناس جراء الفتن بين الأمراء» .

كانت «الكلمة» فى بداية القرن الخامس عشر مثالا أدبيا يقتدى به فى تأليف الـ «زادونشينا» (وراء

الدون) ، التى هى عبارة عن انتاج شعرى صغير الحجم ، كرس لتمجيد النصر الذى احرزه دميتري دونسكوي * فى ساحة قتال كوليكوفو . لقد استخدمت فى «الزادونشينا» الصور الفنية «للكلمة عن حملة ايغور» — مواجهة الماضى الحزين بفرح النصر .

لقد أثرت «الكلمة» ، سواء عن طريق «الزادونشينا» أو بصورة مباشرة ، فى عمل أدبى أخر عن معركة الدون ، يدعى بـ«القصة عن مجزرة ماماي **» .

---

* دميتري دونسكوي (١٣٥٠ — ١٣٨٩) ، أمير عظيم على أمارتى موسكو (منذ عام ١٣٥٩) وفلاديمير (منذ عام ١٣٦٢) ؛ ابن ايفان الثانى . تزعم الكفاح المسلح للشعب الروسى ضد الجيوش المغولية-التترية . لقد أظهر دميتري دونسكوي فى معركة كوليكوفو عام ١٣٨٠ (ساحة قتال كوليكوفو ، أعالى نهر الدون) ، التى انتهت بهزيمة الغزاة ، نبوغا قياديا فريدا ، الذى من جرائه لقب بـ«دونسكوي» (نسبة الى نهر الدون) . لقد وطدت موسكو فى عهد دميتري دونسكوي مكانتها القيادية فى الأراضى الروسية . **المترجم** .

** ماماي (؟ — ١٣٨٠) — الحاكم الفعلى للأرطة

وهكذا نرى أن «الكلمة عن حملة ايغور» كانت بين الفينة والأخرى تظهر هنا وهناك فى أقاليم روسيا . لقد قرأت «الكلمة» واعيدت قراءتها مرارا وتكرارا ، وكان الشعراء والكتاب يبحثون فيها عن الهام لمؤلفاتهم . ان «الكلمة» التى صيغت فى جنوب روسيا «لم تضع على حدود «السهوب الموحشة» ، بل طافت فى أرجاء الأرض الروسية باكملها ، غير مرة اخترقت دائرته» — كما قال الاكاديمى أ . س . أورلوف .

اكتشاف «الكلمة عن حملة إيغور»

لقد عثر على أحد السجلات ، الذى يحوى «الكلمة عن حملة ايغور» ، فى بداية التسعينات من

الذهبية ، التى أنشأها باتوخان — حفيد جنكيزخان على نهر الفولغا عام ١٢٤٢ ، والتى عرفت بفظاعتها فى الحروب . هزم ماماي على يد دميتري دونسكوي فى معركة كوليكوفو عام ١٣٨٠ . بعد أن فقد سلطته فى الأرطة الذهبية هرب الى شبه جزيرة القرم . **المترجم** .

القرن الثامن عشر من قبل الهاوى المعروف وجامع الآثار الروسية القديمة أ . اى . موسين—بوشكين . يرجع عهد هذا السجل ، كما يبدو ، الى القرن السادس عشر . كان نص «الكلمة» ضمن مؤلفات روسية ذات محتوى علمانى . لقد اشترى أ . اى . موسين—بوشكين عن طريق وكيله هذا السجل مع مخطوطات أخرى من دير سباسو—ياروسلافسكى . ان أول نبأ موجز جدا عن «الكلمة» قام بنشره شاعر ذلك العصر المعروف خيراسكوف فى الطبعة الثانية لقصيدته «فلاديمير» عام ١٧٩٧ . بعد ذلك نشر الشاعر الشهير كارامزين تفصيلا اكثر عن «الكلمة» فى مجلة * "Spectateur du Nord" الأدبية ، التى كان يصدرها المهاجرون الفرنسيون فى هامبورغ ، فى العدد الصادر فى تشرين الاول عام ١٧٩٧ . عملت عدة نسخ طبق الأصل «للكلمة» ، وصلتنا منها النسخة التى كانت مخصصة للامبراطورة يكاترينا الثانية (١٧٢٩ — ١٧٩٦) . قام موسين—بوسكين بطبع

---

* «استعراض الشمال» (بالفرنسية فى الأصل) .

«الكلمة» عام ١٨٠٠ بالاشتراك مع عدد من العلماء المتخصصين بالمخطوطات الروسية القديمة . فى عام ١٨١٢ احترق السجل الذى كان يحوى «الكلمة» مع القسم الاكبر لنسخ الطبعة الأولى فى حريق موسكو الشهير اثناء غزو نابليون بونابرت لها .

أظهرت مقارنة نسخة الأمبراطورة يكاترينا مع طبعة عام ١٨٠٠ بوضوح أن الكثير من الاوليات لم تفهم فى «الكلمة» جراء عدم التضلع فى تاريخ اللغة الروسية القديمة أو جراء العجز عن قراءة المخطوطات القديمة فى نهاية القرن الثامن عشر . فان ما نعتبره الآن اشياء بسيطة وواضحة ، لم تكن «معروفة» من قبل الناشرين الاوائل . فأنهم ، بالاضافة الى ما قد افسده النساخ فى نص «الكلمة» طيلة القرون الثانى عشر — السادس عشر ، قد ادخلوا عليها اخطاءهم الخاصة ، غير قادرين على قراءة النص بصورة صحيحة .

ان عدم فهم نص «الكلمة» واضح جداً فى أماكن كثيرة للطبعة الأولى . وان أخطاء الناشرين هذه تبرهن من ناحية أخرى على نزاهتهم : فهم قد فضلوا أن يبقوا على النص «مظلماً» على أن «ينوروه» كيفما اتفق .

لم تفهم آنذاك آراء «الكلمة عن حملة ايغور» ، كما لم تفهم الخواص الروسية النموذجية لصيغة «الكلمة» المطابقة للشعر الشعبى ، ولديوان الأخبار ، ولمؤلفات الأدب الروسى القديم .

لكن فيما بعد فسر الكثير من الأحداث التاريخية فى «الكلمة» ؛ كما فسر الكثير من ظواهر لغة «الكلمة» التى كانت تعتبر غير مفهومة فى نهاية القرن الثامن عشر — بداية التاسع عشر ؛ وعثر فى الشعر الشعبى وفى الكثير من مؤلفات القرون الحادى عشر — الثالث عشر ، والتى كانت فيما مضى مجهولة ، على مقارنة لصور الكلمة وصيغ الكلام فيها .

لقد درست «الكلمة» من قبل علماء اللغة والأدب ، والشعراء والمؤرخين . لقد اهتم بها بوشكين ، الذى أبقى لنا مسودات عمله التمهيدى لترجمتها . لقد ترجمها فطاحل الشعراء الروس : فاسيلى جوكوفسكى ، أبولون مايكوف ، ليف ميـي وشعراء آخرون فى القرن ١٩ .

لم يفت أحدا من علماء اللغة والأدب الروس البارزين أن يكتب عن «الكلمة عن حملة ايغور» . لقد بلغ عدد ما كتب من البحوث العلمية عن «الكلمة»

اكثر من سبعمائة بحث . وانها قد ترجمت الى كل اللغات السلافية والى أغلبية اللغات الاوربية الغربية .

اما ترجمات «الكلمة» الكثيرة جدا الى لغات شعوب الاتحاد السوفييتى ، والبحوث الغزيرة ، التى كتبت بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، فما هو الا دليل على مدى الحب العميق الذى يكنه كل الشعب السوفييتى لهذا المؤلف الوطنى الرائع فى الأدب الروسى .

الأكاديمى دميترى ليخاتشوف

قصة الحملة التى قادها الأمير إيغور بن سفياتوسلاف بن أوليغ (١)

ليس من اللائق بنا ، يا اخوان ،
أن نسرد بكلمات قصص
الرثاء الحربي القديم
«الأنشودة» عن حملة ايغور ، (٢)
ايغور بن سفياتوسلاف ؟
لتبدأ هذه الأنشودة
على غرار روايات عصرنا
لا وفقا لخيال بويان (٣)
لأن بويان العليم ،
اذا أراد ان ينظم قصيدة لأحد ،
ساحَ بفكره عبر الشجر
جرىَ كالذئب الأغبر فى البرية ،
حلقَ كالنسر الازرق تحت السحاب .
فهو كان يذكر ، كما قيل ،
الفترات الأولى للخصومات الداخلية .
آنذاك كان يطلق عشرة صقور على

سرب من التم :

بأية تمة لحقت الصقور

كانت تلك الأولى تنشد أغنيتها

لياروسلاف الكبير ، (٤)

لمستيسلاف الشجاع (٥)

الذى ذبح ريديديا أمام جيوش الكاسوغ ،

لرومان بن سفياتوسلاف الجميل . (٦)

أما بويان ، يا اخوان ، فلم يطلق

عشرة صقور على سرب التم ،

بل أنه وضع اصابعه الحكيمة

على الأوتار الحية ،

فاذاعت تلك الأوتار الصيت للأمراء .

لنبدأ ، أيها الأخوان ،

هذه القصة

من فلاديمير القديم الى ايغور الحالى ، (٧)

الذى وطد عقله بقوته ،
وشحذ قلبه بالشجاعة ،
وبعد أن امتلأ بالروح القتالية ،
قاد جيوشه المقدامة
الى الارض البولوفيتسية (٨)
فى سبيل الأرض الروسية .

آنذاك القى ايغور نظرة (٩)
على الشمس الساطعة
فرأى منها ظلاما
قد غطى عساكره كلها .
فقال ايغور لجنده :
«يا اخوانى ويا جندى !
من الأفضل أن نكون قتلى
على ان نكون أسرى ؛
لنركب اذا ، يا اخوان ،

على خيولنا السريعة ،
ولنشاهد الدون الازرق» .
لقد رضخ عقل الأمير لرغبته ،
وان توقه لذوق ماء الدون العظيم
قد حجب عنه نذير الشؤم .
فقال : «انى أريد أن أكسّر رمحى (١٠)
على تخوم السهب البولوفيتسى ،
ومعكم ، يا أبناء روسيا ،
اما أن اطرح رأسي
واما أن أشرب من
الدون بخوذى» . (١١)
آه ! يا بويان ، يا بلبل العصر القديم !
انك لتغنيت حقا بتلك الحملات
مرفرفا ، أيها البلبل ،
على شجرة الخيال ،
طائرا بذهنك تحت السحاب ،



حائكا مجد كلا نصفى هذا الزمان ،
مسرعاً على غير هدى فى مخارم ترويان (١٢)
عبر السهول الى الجبال .
ولأضطر حفيد فيليس (١٣)
أن يتغنى بايغور هكذا :
«لم تعصف الريح بالصقور
عبر السهول الواسعة ،
بل أن أسراب الزيغان تجرى
نحو الدون العظيم» .
أو لبدأت تتغنى هكذا ،
يا بويان العليم ،
يا حفيد فيليس :
«الخيل تصهل وراء سولا ، (١٤)
والمجد يدوى فى كييف ،
الأبواق ينفخ بها فى نوفغورود (١٥)
والرايات تشمخ فى بوتيفل !» (١٦)

ان ايغور ينتظر أخاه العزيز
فسيفولود . (١٧)
فقال له الثور الأهوج * فسيفولود : (١٨)
«لى أخ واحد ،
نور ساطع واحد —
هو أنت يا ايغور !
انّا كلانا ولد سفياتوسلاف !
فأسرج ، يا أخى ،
خيلك السريعة ،
أما خيلى ، فهى جاهزة ،
أنها مسرجة قرب كورسك سلفاً . (١٩)
أما رجالى فى كورسك ، فكماة مجربون :
فهم تحت أصوات الابواق
قد قمطوا ، (٢٠)

* الأهوج — الشجاع الذى يرمى نفسه فى الحرب . المترجم .

تحت الخوذ قد ترعرعوا ،
من رؤوس الرماح قد أرضعوا ،
الطرق لديهم معروفة ،
الأخاديد لديهم معلومة ،
أقواسهم مشدودة ،
كنائنهم مفتوحة ،
سيوفهم مشحوذة .
أنهم يجوبون السهول كالذئاب الغبر ،
طالبين الشرف لأنفسهم ، والعزة للأمير» . (٢١)

عندئذ وضع الأمير ايغور رجله فى
الركاب الذهبى
وأنطلق فى السهل المبسوط .
اعترضت الشمس سبيله بظلام ،
فايقظ الليل الطيور بعويل العاصفة ،
فتصاعد صفير الوحوش ،

لقد تنفش الديف (٢٢) —
أنه أخذ يصرخ من قمة الشجرة ؛
أنه يصدر الأمر — أن يصغى اليه —
للأرض الغريبة ،

وللفولغا ،
وللارض الساحلية (٢٣)
ولضفاف سولا
ولسوروج
ولكورسون
ولك يا صنم تموتوروكان ! (٢٤)
وبدروب غير ممهدة انطلق
البولوفيتسيون الى الدون العظيم :
ان عرباتهم تزعق فى منتصف الليل
كسرب تم جافل .

أما ايغور فيقود المقاتلين الى الدون !

ان الطيور على السنديان
تتربص لنكباته القادمة ،
والذئاب تثير الرعب فى الأخاديد ،
والعقبان بصفيرها تدعو الوحوش الى
العظام ،
والثعالب تضبحُ على التروس القرمزية . (٢٥)

وا أرض روسيا ! انك أضحيت خلف التل !

الليل ينقشع ببطء
الفجر قد رمى بنوره ،
والسديم قد غطى السهول ،
فنام شدو العنادل ،
وأفاق نعيق الزيغان . (٢٦)
سد أبناء روسيا السهول الواسعة
بتروسهم القرمزية ،



طالبين الشرف لأنفسهم والعزة للأمير .

إنهم فى صباح الجمعة الباكر
قد شتتوا الجحافل البولوفيتسية الوثنية ،
وأنتشروا فى السهب كالسهام ،
فاختطفوا الصبايا البولوفيتسية
الحسان ،

ومعهن الذهب ،
والطيالس ،
والديباج النفيس .
ومن الأغطية ،
والعباءات ،
والمعاطف المفرّية ،
ومن شتى الثياب البولوفيتسية الموشّية ،
أخذوا يمدون الجسور فوق المستنقعات ،
وفوق الأماكن الموحلة .

أما اللواء القرمزى ،
والراية البيضاء ،
والعُذْرة القرمزية (٢٧)
والسارية الفضية —
فهى لأبن سفياتوسلاف الصنديد !
يغفو فى السهل عش
بنى أوليغ الشجاع .
انه طار بعيدا .
فهو لم يكن مولودا فى الضيم
للصقر
ولا للسنقور
ولا لك ، أيها الغراب الأسود ،
أيها البولوفيتسى الكافر .
غزاك يعدو كالذئب الأغبر
وكونتشاك يشير له الطريق نحو
الدون العظيم . (٢٨)

فى باكورة اليوم الثانى
يعلن الفجر الدموى عن نوره ؛
إنّ سحباً سوداء تنطلق
من البحر ، (٢٩)
إنها تريد حجب أربع شموس ، (٣٠)
فيها يرتجف برق أزرق .
سيحدث رعد عظيم ،
وكالسهام سينزل مطر من
الدون العظيم !
ههنا مقسوم للرماح أن تتكسر ،
ههنا مقسوم للسيوف أن تقرع
على خوذ البولوفيتسيين ،
على نهر كايالا (٣١)
قرب الدون العظيم !

وا أرض روسيا ! إنك اضحيت خلف التل !

إنّ الرياح ، أحفاد ستريبوغ ، تهب
من البحر كالسهام (٣٢)
على أفواج ايغور المقدامة .
فالأرض تدوى ،
والأنهار تجرى عكرة ، (٣٣)
والغبار يغطى السهول ،
والرايات تقول :
إن البولوفيتسيين يزحفون من الدون ،
ومن البحر ،
وقد طوقوا الفرق الروسية من كل الجهات .
سد أبناء إبليس سوح القتال بصراخهم ،
أما أبناء روسيا الصناديد فسدوها
بتروسهم القرمزية .

يأيها الثور الجسور فسيفولود !
إنك واقف فى قلب المعركة منيعا ،

ترشق الكماة بسهامك ،
وتجلجل بسيوفك الفولاذية على خوذهم .
فاينما تكر ، أيها الثور ،
وأنت تضىء بخوذتك الذهبية ،
تتناثر حولك رؤوس البولوفيتسيين الدنسة ،
وقد تشققت عليها الخوذ الأفارية
من سيوفك الحامية (٣٤)
من قبلك ، ايها الثور الجسور فسيفولود !
اى جرح ، يا اخوان ، سيفزع من نسى شرفه
وحياته ،
ومدينة تشرنيغوف عرش الآباء الذهبى ،
وحب وعناق عروسه العزيزة ،
إبنة غليب الجميلة ؟ (٣٥)
كانت عصور ترويان ،
مرت سنون ياروسلاف ،
اضحت حروب أوليغ فى خبر كان ، (٣٦)

أوليغ بن سفياتوسلاف . (٣٧)
إن أوليغ هذا قد صاغ المؤامرات بالسيف
وزرع الارض بالسهام .
وحين وضع رجله فى الركاب الذهبى
فى مدينة تموتوروكان ،
سمع تلك الجلجلة ياروسلاف العظيم
سالف الزمان ،
وإن فلاديمير بن فسيفولود
كان فى تشرنيغوف كل صباح يسد الآذان .
أما بوريس بن فياتشيسلاف فقد جرّه تبجحه
الى القضاء ، (٣٨)
ففرش له كفنا أخضر على كانينا ، (٣٩)
لذاك الأمير اليافع الشجاع ،
لأنه انتصر لضيم أوليغ .
ومن كايالا تلك بالذات انطلق سفياتوبولك
يرعى والده (٤٠)

بين الجياد الهنغارية الرهاء (٤١)
الى القديسة صوفيا فى كييف (١١٣) .
آنذاك فى عهد أوليغ غوريسلافيتش (٤٢)
زرعت ونمت بشدة النزاعات الداخلية ،
فهلكت ثروات حفيد داجبوغ ، (٤٣)
وقصرت أعمار الناس جراء الفتن بين الأمراء .
عندئذ قل فديد الحراث فى كل الارض الروسية .
إن الغربان وحدها باتت تنعب فى الغالب ،
وهى تتقاسم الجثث فيما بينها ،
أما الزيغان فكانت تتحدث بلسانها
وهى تهم بالانقضاض على الغنيمة .

هذا ما كان فى تلك المعارك
وفى تلك الحملات . (٤٤)
أما بمثل هذه المعركة فلم نسمع قط !
فمن الصباح الباكر حتى المساء ،



ومن المساء حتى بزوغ الضوء
كانت تطير السهام الحامية ، (٤٥)
وتصلصل السيوف على الخوذ ،
وتتفطر الرماح الفولاذية
في السهب الغريب
وسط الأرض البولوفيتسية .
إن الأرض السوداء تحت السنابك كانت مزروعة
بالعظام
ومسقية بالدماء :
فنبتت العظام بلاء في الأرض الروسية .

ما هذا الصخب الذى يترامى لى ،
ما هذا الرنين الذى أسمعه عن بعد ، باكرا ،
قبيل السحر ؟
إنّ ايغور يرد الألوية الهاربة ، (٤٦)
لأنه أشفق على أخيه العزيز فسيفولود .

لقد قاتلوا يوما ،
قاتلوا يوما آخر ؛
فى اليوم الثالث ضحى سقطت رايات ايغور .
ههنا على ضفاف كايلا السريعة
افترق الأخوان ؛

ههنا عازهم النبيذ الدموى ،
ههنا أنهى أبناء روسيا الشجعان الوليمة : (٤٧)
لقد سقوا أصهارهم ، أما هم فسقطوا شهداء
في سبيل الأرض الروسية .
تهدلت الأعشاب رأفة بهم ،
وخرّ لهم الشجر ساجداً حزيناً .
لقد حلت ، أيها الأخوان ، أزمنة كئيبة ،
لقد غطت الصحراء الجيش .
إن الكارثة قد هبت فى جيوش
حفيد داجبوغ ،
إنها قد وطأت أرض ترويان بهيئة فتاة ،

واخذت تصفق بجناحى تمة (٤٨)
فى البحر الازرق قرب الدون ؛
وبصفقها هذا قد طردت أيام الخصب .
لقد انقطع صراع الأمراء ضد الوثنيين ،
لأن الأخ كان يقول لأخيه :
«هذا ملكى ، وذاك ملكى ايضا» .
وعن الصغيرة صار الأمراء
يقولون : «إنها عظيمة»
فصاروا يصوغون المؤامرات ضد أنفسهم .
أما الوثنيون فكانوا من جميع الجهات يأتون
بالانتصارات
على الأرض الروسية .

أيه ! لقد طار الصقر بعيداً — ضارباً الطيور —
الى البحر . (٤٩)
إن جيش إيغور الشجاع لن يبعث حياً !



لقد ندبته كارنا ، أما جيلا فأخذت تعدو
في الأرض الروسية ، (٥٠)
قاذفة الناس بالمصائب من القرن
الملتهب . (٥١)
فناحت النساء الروسيات مرددات :
«لم يبق لنا شيء من احبائنا الأعزاء :
فلن نشاركهم الخواطر ،
ولن نقاسمهم الافكار ،
ولن نراهم بالبواصر ،
أما الذهب والفضة فلن نداعب أبدا» .

لقد بدأت كييف ، يا اخوان ، تئن من الأسى
وتشرنيغوف من المصائب .
إن الكآبة قد تدفقت في كل
الأرض الروسية ،
وإنساب حزن جم وسط الارض الروسية .

كان الأمراء يصوغون المؤامرات ضد انفسهم ،
أما الوثنيون فاكتسحوا الأرض الروسية
منتصرين ،
وأخذوا قطعة نقد فضية جزية من كل حوش .

لأن أبنى سفياتوسلاف الصنديدين ،
ايغور وفسيفولود ،
بانفرادهما قد ايقظا الشر ،
الذى قد أخمده ، والدهما —
أمير كييف الرهيب سفياتوسلاف العظيم —
بعنف : (٥٢)
إنه ضربهم بجيوشه القوية
وبسيوفه الفولاذية ،
واجتاح الأرض البولوفيتسية ،
فداس الهضاب والأخاديد ،
وعكر الأنهار والبحيرات ،

وأيبس الجداول والمستنقعات .
فساق كوبياك الوثنى من الساحل ، (٥٣)
منتزعا اياه ، كالأعصار ،
من بين الجيوش البولوفيتسية
الحديدية الجبارة .
فوقع كوبياك فى مدينة كييف
فى بهو سفياتوسلاف . (٥٤)
هنا صار الالمان والفينيسيون ،
هنا صار اليونانيون والتشيك
ينشدون المجد لسفياتوسلاف ،
يلومون الأمير ايغور ،
الذى أغرق الثروة فى قاع كايالا ،
فى النهر البولوفيتسى ،
ناثرا الذهب الروسي فيه .
ههنا نزل الأمير ايغور من على الصهوة الذهبية
واستوى على صهوة العبودية .

فاكتأبت أسوار المدن
وتكدرت الأفراح .

ان سفياتوسلاف قد رأى حلما غامضا
في كييف فوق الجبال . (٥٥)
إنه يقول : «لقد كفنوني ليلة البارحة
بكفن أسود
على سرير من الطقسوس ؛
وغرفوا لي نبيذا أزرق (٥٦)
مخلوطا بالشجون ؛
وأسقطوا من كنائن الوثنيين الغرباء الفارغة
درة كبيرة على صدري (٥٧)
وصاروا يدللونني .
ولقد أضحت الألواح بدون روافد (٥٨)
في برجي ذي السقف المذهب .
طوال الليل منذ المساء

نعقت الغربان الغبراء قرب بليسنيسك ، (٥٩)
وفي خندق المدينة إنتصبت غابة كيّان ، (٦٠)
وأنطلقت الغربان هذه نحو البحر الأزرق» .
فقال النبلاء للأمير :
«إن النازلة ، يأيها الأمير ، قد أسرت لبك ،
لأن صقرين قد طارا
من عرش الآباء الذهبي
ليستوليا على مدينة تموتوروكان
أو ليشربا من الدون بخوذهما .
لقد قصت اجنحة الصقرين
بسيوف الوثنيين ؛
وانهما قد كبّلا في اصفاد حديدية» .

كانت ظلمة في اليوم الثالث :
إن شمسين قد خمدتا ، (٦١)
إنطفأ العمودان الارجوانيان كلاهما ،



ومعهما قمران يافعان (٦١)
هما أوليغ وسفياتوسلاف —
إنهما قد حُجبا بظلام دامس ،
وأغطسا في البحر ،
فأثارا في خينوفا شجاعة عظيمة . (٦٢)
إن الظلام قد غطى النور على نهر كايالا ، (٦٣)
وكأجرية الفهود (٦٤)
اجتاح البولوفيتسيون الأرض الروسية .
لقد اطبق العار على المجد ،
وضرب الجور الحرية ،
فانقض الديف على الأرض .
وهكذا شرعت الصبايا الغوتيات الحسان (٦٥)
تغنى على ساحل البحر الازرق —
وعليهن ترن الحلى الذهبية الروسية —
وتنشد لأيام بوس ، (٦٦)
وتضمر الثأر لشاروكان .

أما نحن ، الفرسان ، فبقينا بلا أفراح !
عندئذ أطلق سفياتوسلاف الغظيم
كلمته الذهبية
الممزوجة بالدموع ،
وقال :
«ويحكما يا إبنيّ ، إيغور وفسيفولود ! (٦٧)
لقد شرعتما باكرا فى صنع الضيم
للأرض البولوفيتسية بسيوفكما ،
وفى التماس المجد لأنفسكما .
إنكما بلا شرف انتصرتما ،
وبلا شرف أرقتما الدماء الوثنية .
قلباكما الشجاعان
من الفولاذ الصلب قد صنعا ،
وفى البسالة قد سقيا .
أهذا ما صنعتما لمشيبي الفضي ؟
فأنا لم أعد أرى جبروت

أخي ياروسلاف
القوى
والغنى ،
صاحب العساكر الوفيرة
مع أكابر تشرنيغوف ،
مع القوّاد ،
ومع التاترانيين ،
ومع الشلبيرانيين ،
ومع التوبتشاكيين ،
ومع الريفوغيين ،
ومع الأولبيريين . (٦٨)
بيد إن اولئك كانوا يتغلبون على الجيوش
بلا تروس ، بل بخناجر الجزمات والصياح فقط ،
متفاخرين بمجد الأسلاف .
لقد قلتما : «إنّ رجولتنا ستكتمل :
سنختطف المجد الغابر لأنفسنا ،

اما القادم منه فسوف نقتسمه» .
وهل عجبا ، يا اخوان ، أن يعود الشيخ شابا ؟
فعندما يبدل الصقر ريشه ،
فأنه يضرب الطيور فى الأعالى ،
ولا يترك عشه للضيم .
لكن الشر كل الشر — إن الأمراء لا يؤازروننى :
لقد استحالت الأزمنة الى شؤم .
فسكان ريموف يصرخون تحت
سيوف البولوفيتسيين ، (٦٩)
والأمير فلاديمير يئن من الجراح . (٧٠)
الكدر والكآبة لأبن غليب !» .

يأيها الأمير العظيم فسيفولود ! (٧١)
أمن المعقول ولا حتى أن يخطر ببالك أن تطير
من بعيد
لتدافع عن عرش الآباء الذهبى ؟

فأنت تستطيع أن تنثر الفولغا
بالمجاذيف ، (٧٢)
وأن تغرف الدون بالخوذ !
فلو أنك كنت هنا
لبيعت الجارية بنوغاته ،
والعبد بريزانه . (٧٣)
إنك تستطيع من اليابسة
أن ترميهم بقذائف الشيرشير الحية
أى بأبناء غليب الأشاوس . (٧٤)
وأنتما يا ريوريك الهائج ، ويا دافيد ! (٧٥)
أليس جندكما
هم الذين سبحوا فى الدماء
بخوذهم الذهبية ؟
أليس حراسكما الشجعان
هم الذين جرحوا بالسيوف الحامية ،
وكانوا يجأرون كالثيران البرية



فى السهب الغريب ؟
فضعا ، أيها السيدان ، أرجلكما
فى الركائب الذهبية
ثأراً لضيم هذا الزمان ،
ثأراً للأرض الروسية ،
ثأراً لجراح إيغور
بن سفياتوسلاف الهائج !

يأيها الغاليتسى ياروسلاف أوسموميسل ! (٧٦)
إنك تجلس عاليا
على عرشك الذهبى ،
وقد أُقفلت الجبال الهنغارية (٧٧)
بفيالقك الحديدية ،
قاطعاً الطريق على الملك ، (٧٨)
موصداً بوابة الدانوب ،
قاذفاً الأثقال عبر السحاب ، (٧٩)

مديرا دفة الحكم الى الدانوب .
أما سطوتك فتجرى فى الاراضى (١١٦)
فأنت تفتح بوابة كييف ، (٨٠)
وترمى من عرش الآباء الذهبى (٨١)
السلاطين وراء الأراضى .
فسدد سهامك إذن ، يا مولاى ،
الى كونتشاك ، ذلك العبد الوثنى
ثأراً للأرض الروسية
ثأراً لجراح إيغور بن سفياتوسلاف
الصنديد !

وأنت يا رومان الجسور ، ويا مستيسلاف ! (٨٢)
إن الفكرة الشجاعة تستميل عقليكما
الى المأثرة .
إنك تطير عالياً الى المأثرة بشجاعة ،
كالصقر سابحاً فى الفضاء ،

تواقاً الى قهر الطيور بجسارة .
فأنتما تملكان الصدرات الحديدية
تحت الخوذ الرومية ،
التى اهتزت منها الأرض ،
وبلدان كثيرة :
خينوفا ،
ليتوانيا ،
ياتفياغى ،
ديريميلا ، (٨٣)
ومنها طرح البولوفيتسيون حرابهم
واحنوا رؤوسهم تحت سيوفكم الفولاذية تلك .

إن ضوء الشمس ، أيها الأمير ايغور ،
قد انطفأ ،
وليس بفاتحة خير أن قد نفضت الشجرة
أوراقها :

لقد تقاسما المدن على طول روس
وسولا . (٨٤)
ان جيش ايغور الشجاع لن يبعث حياً !
الدون يناديك ، أيها الأمير ،
وينادى الأمراء الى النصر .
لقد أسرع أبناء أوليغ ، الأمراء الشجعان ،
الى القتال . . .
انكم ، يا انغفار وفسيفولود ،
ويا أبناء مستيسلاف الثلاثة ، (٨٥)
لستم بصقور عش ذليل !
لكنكم بالقرع الباطلة قد اختطفتم المقاطعات
لأنفسكم !
أين هى اذا خوذكم الذهبية
ورماحكم البولونية
وتروسكم ؟
سدوا البوابة بوجه السهب

بسهامكم الحادة
من أجل الأرض الروسية ،
من أجل جراح ايغور
بن سفياتوسلاف الصنديد !

ان سولا لم تعد تجرى بدفقها الفضى
الى مدينة بيرياسلافل ،
ودفينا تجرى كالمستنقع
لأولئك البولوتسكيين الرهيبين
تحت صراخ الوثنيين .
ان ايزياسلاف بن فاسيلكو هو الوحيد ، (٨٦)
الذى صلصلت سيوفه
على الخوذ اللتوانية ،
فتفوق على مجد جده فسيسلاف (٨٧)
أما هو فكان تحت التروس القرمزية
على الأعشاب المخضبة بالدم

مهشما بالسيوف اللتوانية
ينزف دما الى جانب أثيره فقال
«ان جندك ، أيها الأمير ،
قد البستهم الطير اجنحتها ،
أما الوحوش فقد لعقت دمهم» .
لم يكن معه أخوه برياتشيسلاف ،
ولا أخوه الآخر فسيفولود . (٨٨)
وهكذا فى العزلة التامة أسلم روحه اللؤلؤية
من جسده الشجاع
عبر القلادة الذهبية .
فاكتأبت الأصوات ،
وتلاشت الأفراح .
ان الأبواق تزمجر فى غورودين . (٨٩)
يا أحفاد ياروسلاف وفسيسلاف أجمعين !
نكسوا راياتكم ،
ردوا سيوفكم المثلومة الى أغمادها ،

لأنكم فقدتم مجد الآباء .
فأنتم بمؤامراتكم
قد بدأتم توجهون الوثنيين
نحو الأرض الروسية ،
نحو ثروة فسيسلاف .
وجراء الفتن الداخلية حل بنا الجور
من الأرض البولوفيتسية !

فى القرن السابع لترويان (٩٠)
أجرى فسيسلاف القرعة (٩١)
على الفتاة التى أحبها .
انه بالاحتيال استند على الخيل
فأغار على مدينة كييف
ومس بالنصل
عرش كييف الذهبى . (٩٢)
وثب منهم كوحش عات



في منتصف الليل من بيلغورود ، (٩٣)
محاطاً بالظلمة الزرقاء ، وقد نال سعادته ،
في ثلاث محاولات فتح بوابة نوفغورود ،
فحطم مجد ياروسلاف ، (٩٤)
ثم عدا كالذئب
الى نيميغا من دودوتكي . (٩٥)

انهم على نيميغا يفرشون حزم النَشير بالرؤوس (١١٤)
ويدرسونها بسلاسل فولاذية ،
يضعون الحياة على البيدر ،
ويذرون الروح من الجسد .
ان ضفاف نيميغا المخضبة بالدم
لم تزرع بالخير—
انها زرعت بعظام أبناء روسيا .

لقد قضى الأمير فسيسلاف بين الناس ، (٩٦)

نصّب الأمراء على المدن ،
أما هو فكالذئب كان يطوف فى الليل :
فمن كييف كان يصل تموتوروكان قبيل
صياح الديكة ،
وكالذئب كان يعدو فيقطع طريق
خورس العظيم ؛ (٩٧)
تقرع له النواقيس فى بولوتسك باكراً
لصلاة الصباح
فى القديسة صوفيا ،
فكان يسمع ذلك القرع وهو فى كييف .
وبالرغم أن روحه فى جسده الشجاع
كانت سحرية
الا أنه فى الغالب كان يعانى من سوء الحظ .
لقد أسمعه بويان العليم قراراً قديماً ،
فقال له الحكيم :
«لن يفلت من حكم الرب

ذو الحيلة ،
ولا الداهية ،
ولا الساحر الحاذق» .

آه ! استئن الأرض الروسية ،
متذكرة الأزمنة الأولى
والأمراء الأولين !
فذلك الأمير فلاديمير القديم (٩٨)
لم يكن بالمستطاع تثبيته على
هضاب كييف :
أما الآن فاضحت راياته بعضها لريوريك ؛ (٩٩)
وبعضها لدافيد :
لكن أقمشتها ترفرف فى جهات معاكسة . (١٠٠)
الرماح تغنى ! (١٠١)

انّ صوت ياروسلافنا يسمع على الدانوب ، (١٠٢)



فهى تصيح باكرا كوقواقة غريبة :
«سأطير ، — تقول ، — كالوقواقة على الدانوب ،
سابلل ردنى الحريرى فى نهر كايالا ،
سأمسح جروح الأمير الدامية
على جسمه الجبار» .
ياروسلافنا تبكى باكراً
فى بوتيفل على السور ، مرددة : (١٠٣)
«يأيتها الريح ! يأيتها الرياح !
لِمَ ، يا سيدتى ، تهبين مضادة ،
لِمَ تسرعين بالسهام الخينوفية
على اجنحتك الخفيفة ،
على جند حبيبى ؟
أكان قليل عليك أن تهبى تحت السحاب ،
هازة السفن فى البحر الازرق ؟
فلم ، يا سيدتى ، قد ذريتِ
بهجتى على الأعشاب البرية ؟»

ياروسلافنا تبكى باكراً
فى مدينة بوتيفل على السور ، مرددة :
«يا دنيبر سلوفوتيتش ! (١٠٤)
انك قد خرقت الجبال الصخرية
عبر الأرض البولوفيتسية .
انك أرجحت فى مياهك قوادس سفياتوسلاف
الى معسكر كوبياك .
فأرجح ، يا سيدى ، حبيبى فى مياهك نحوى ،
كى لا أرسل له دموعى
فى البحر باكراً» .
ياروسلافنا تبكى باكراً
فى بوتيفل على السور ، مرددة :
«نيرة أنتِ ، وثلاثاً نيرة ، أيتها الشمس !
للكل أنتِ دافئة وجميلة :
فلِمَ ، يا مولاتى ، قد أرسلتِ أشعتكِ اللاهبة
على جند حبيبى ؟

ولم فى قفر قاحل قد لويت أقواسهم عطشاً ،
وأحكمت شد كنائنهم شجناً ؟»

ازبد البحر فى منتصف الليل ،
أخذت الأعاصير تسير كالغيوم كثرة .
ان الرب يشير الطريق للأمير ايغور
من الأرض البولوفيتسية
الى الأرض الروسية ،
الى عرش الآباء الذهبى .

انطفأ الشفق مساء .
ايغور نائم ،
ايغور يقظ ،
ايغور يذرع السهب بفكره
من الدون العظيم الى
الدونيتس الصغير .

ان أُوفلور الذى جاء بالخيل فى منتصف
الليل ، (١٠٥)
صفر وراء النهر ، معطيا الأشارة للأمير .
ليس للأمير ايغور أن يكون فى الأسر !
هتفت ،
اهتزت الأرض ،
حفّت الأعشاب ،
تمايلت خيام البولوفيتسيين .
أما الأمير ايغور فوثب
الى القصب بهيئة قاقوم (١٠٦)
والى الماء بهيئة علجوم أبيض . (١٠٧)
وثب الى حصانه السريع
وقفز منه بهيئة ذئب أغبر ،
وعدا الى منعطف الدونيتس ،
وطار بهيئة صقر تحت السحب ،
ضارباً الوز والتم

لفطوره
ولغدائه
ولعشائه .
عندما طار ايغور بهيئة صقر ،
جرى أُوفلور ساعتئذ بهيئة ذئب ،
نافضاً عن نفسه الندى البارد :
لأنهما قد اضنيا جواديهما السريعين .

الدونيتس يقول : (١٠٨)
«يأيها الأمير ايغور !
لك وافر العظمة ،
ولكونتشاك الكراهية ،
وللأرض الروسية البهجة» .
ايغور يقول :
«يأيها الدونيتس !
لك وافر العظمة ،

فأنت قد أرجحت الأمير بلطف على مياهك ،
وفرشت له الأعشاب الخضراء
على ضفافك الفضية ،
والبسته الضباب الدافىء
تحت ظل الشجر الوارف ؛
فأنت قد حرسته بواسطة العلجوم فوق
المياه ،
بواسطة النورس فوق الأمواج ،
بواسطة البط الأسود على متن
الرياح» .
ان نهر ستُوغنا ، يقول الأمير ،
ليس هكذا البتة : (١٠٩)
فهو ذو مجرى ضحضاح ،
لكنه ازدرد الجداول والسيول الأخرى ،
فأضحى واسعاً فى مصبه ، .
انه ابتلع الأمير الشاب روستيسلاف . (١١٠)

على شاطئ الدنيبر المظلم
تنوح أم روستيسلاف
على الأمير الشاب روستيسلاف .
لقد شجنت الازهار رأفة به ،
وانحنى الشجر الى الارض مكتئباً عليه .
إن العقائق لم تشقشق —
إنما غزاك وكونتشاك قد اطلقا العنان
فى أثـر ايغـور
عندئذ لم تنعق الغربان ،
الزيغان صمتت
وحتى العقائق لم تشقشق ،
إن الثعابين وحدها كانت ترحف ،
وطيور الشرقرق بنقرها تشير الطريق
الى النهر .
أما العنادل فبأغانيها المرحة
أخذت تبشر بالصباح .

غزاك يقول لكونتشاك :
«اذا طار الصقر الى عشه ،
رمينا صُقيره
بسهامنا المذهبة» .
كونتشاك يقول لغزاك :
«اذا طار الصقر الى عشه ،
أوقعنا صُقيره فى شراك
الغادة الحسناء» .
وقال غزاك لكونتشاك :
«اذا أوقعناه فى شراك الغادة الحسناء ،
نكون قد فقدنا الصقير والغادة الحسناء ،
وستبدأ الطيور تضربنا
فى السهوب البولوفيتسية» .

لقد قال بويان وخودينا ، (١١١)
وهما مغنيا سفياتوسلاف

وعصر ياروسلاف القديم ،
ومحبوبا الأمير أوليغ :
«يشق على الرأس بدون الأكتاف ،
وتحل المصيبة بالجسم بدون الرأس» —
وكذلك الأرض الروسية بدون ايغور .

ان الشمس تشرق فى السماء ،
وان الأمير ايغور فى الأرض الروسية ؛
الصبايا تغنى على الدانوب ،
فتحلق أصواتهن عبر البحر الى كييف .
يجتاز ايغور بفرسه مرتفع بوريتشيف
الى بيروغوش — كنيسة أم القديسة العذراء
ان القرى فرحة والمدن مبتهجة .

بعد أن أنشدوا القصائد للأمراء الكبار ،
أنشدوا كذلك للصغار منهم :

«المجد لايغور بن سفياتوسلاف
وللثور الهائج فسيفولود ،
ولفلاديمير بن ايغور !» .

لتحيوا أيها الأمراء والفرسان
مجاهدين فى سبيل المسيحيين
ضد غزوات الوثنيين !

المجد للأمراء وحرسهم !
آمين .

هوامش «الكلمة عن حملة إيغور»

١ **«كلمة عن حملة إيغور»** — ان التسمية مأخوذة من كتاب يحتوى على مجموعة من المخطوطات القديمة ، كان بضمنها هذا الأثر الأدبى القيم . «الكلمة» مصطلح واسع الأنتشار فى الأدب الروسى القديم ويعنى المؤلف الملحمى أو الخطابى ، الذى يحتوى على نداء لشخص ما (اما فى اللغة العربية ، وحسبما جاء فى «لسان العرب» — المجلد الثانى عشر ، صفحة **٥٢٤** ، فأن «الكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء ، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى ، وتقع على قصيدة بكاملها وخطبة بأسرها . يقال : قال الشاعر فى كلمته أى فى قصيدته . قال الجوهرى : الكلمة القصيدة بطولها» . ولهذا حبذنا أن نطلق لفظة «كلمة» على هذا الأثر الأدبى فى شرح الهوامش . **المترجم**) .

٢ **إيغور** — هو الأمير إيغور بن سفياتوسلاف ، وحفيد الأمير اوليغ بن سفياتوسلاف (الذى سيمر ذكره فيما بعد . **المترجم**) . ولد ايغور عام

١١٥١ . بقى لغاية عام ١١٧٩ بدون اقطاع مستقل خاص به . الا انه بعد وفاة أخيه الأكبر أوليغ عام ١١٧٩ حصل على امارة نوفغورود-سيفيرسكى ، المدينة الصغيرة فى شرق امارة تشرنيغوف . كان ايغور الى اواسط الثمانينات يتبع السياسة التى اتصف بها بنو أوليغ : فهو فى الصراع من أجل مصالحة الأقطاعية-الأميرية كان يلجأ الى مساعدة القفجق (انظر هامش ٨) على نطاق واسع ، عاقدا التحالفات العسكرية مع خاناتهم . لكن منذ أواسط الثمانينات من القرن الثانى عشر فجأة تغيرت سياسة بنى اوليغ : ان غزوات البولوفيتسيين التى اخذت تتكرر فى السبعينات والثمانينات ، جعلت الأمراء الروس يفكرون بضرورة الاتحاد فيما بينهم من اجل النضال المشترك ضد العدو الواحد .

فى عام ١١٨٠ تكبد ايغور هزيمة قاسية فى الصراع الداخلى بين بنى أوليغ وبنى روستيسلاف : ان قوات ايغور وقوات حليفيه الخانين كوبياك وكونتشاك قد هزمت شر هزيمة قرب دولوبسك ، وبالكاد نجا ايغور وكونتشاك من الأسر .

بعد هزيمة بنى أوليغ هذه ، وبغض النظر عن النصر الذى احرزه عليهم ، قام ريوريك بن روستيسلاف بالتنازل عن أمارة كييف العظمى لسفياتوسلاف بن فسيفولود (اكبر أمراء بنى أوليغ سنا ومكانة) . لقد بدأ سفياتوسلاف بن فسيفولود صراعا لاهوادة فيه ضد سهوب القفجق . اشترك ايغور اشتراكا فعالا فى هذا الصراع ، وقام بقطع كل علاقاته التحالفية مع الخانين كوبياك وكونتشاك .

فى عام ١١٨٣ شن الامراء الروس تحت قيادة الأمير سفياتوسلاف بن فسيفولود حملة ناجحة ضد القفجق . لكن ايغور لم يساهم فى هذه الحملة . قام ايغور فى عام ١١٨٥ بشن حملة على سهوب القفجق بالتحالف مع الأمراء الأصغر سنا منه ، وبالذات : مع أخيه فسيفولود بن سفياتوسلاف أمير كورسك ، ومع ابنه فلاديمير أمير بوتيفل ، ومع ابن أخيه سفياتوسلاف بن أوليغ أمير ريلسك ، ومع فرق الكوفويين التى ارسلها الأمير ياروسلاف بن فسيفولود أمير تشرنيغوف (انظر هامش ٦٨) . ورد ذكر هذه الحملة فى دواوين

الأخبار . ولهذا الحدث بالذات كرست «الكلمة عن حملة ايغور» التى نحن بصددها .

تسنم ايغور فى عام ١١٩٠ عرش أمارة تشرنيغوف . وفى عام ١١٩١ باشر بقيادة حملة جديدة على سهوب القفجق وعاد منتصرا بالغنائم . وفى شتاء نفس العام سار من جديد الى السهوب على رأس جيش ، لكن قتالا لم يقع . منذ عام ١١٩٤ لم تعد دواوين الأخبار تذكر شيئا عن نشاط ايغور ، ربما لأن أمارته منذ ذلك الوقت لم تعد ذات شأن كبير فى النطاق العام لروسيا ، فسكت عنها المؤرخون . مات ايغور عام ١٢٠٢ .

٣ **بويان** — شاعر–مغن نظم القصائد والأناشيد فى مدح الأمراء . يعتقد انه عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الى بداية القرن الثانى عشر . ان ذلك الأحترام الكبير الذى يبديه مؤلف «الكلمة» عند ذكر بويان وتكرار اسمه ، ما هو الا دلالة على ان المغنى كان ذائع الصيت فى روسيا القديمة .

٤ **لياروسلاف الكبير** — الحديث يدور هنا عن الأمير ياروسلاف الحكيم بن فلاديمير . ولد عام ٩٧٨ — توفى ١٠٥٤ . لقد بدأ نشاطه السياسى فى روستوف * ، عندما تولى الامارة فيها . وبعد روستوف اصبح أميرا على نوفغورود (انظر هامش ١٥) . منذ عام ١٠١٥ ، عندما مات أمير كييف العظيم فلاديمير ، خاض ياروسلاف صراعا شديدا ضد أخيه سفياتوبولك من اجل الحصول على عرش كييف ، لكنه لم يجلس على هذا العرش الا بعد المعركة الضارية التى وقعت على نهر آلتا عام ١٠١٩ ، والتى دحر فيها سفياتوبولك نهائيا .

* روستوف — مدينة تقع على بحيرة «نيرو» . كانت معروفة منذ عام ٨٥٢ م ، اطلق عليها فى القرون ١٢ — ١٧ اسم روستوف العظيم ، لما لعبته من دور كبير فى الحياة السياسية لروسيا القديمة . أما الآن فان روستوف مركز سياحى ذو شهرة عالمية لما تحتويه من كنائس وأديرة وكرملين وكاتدرائية ذات فن معمارى نفيس وفريد . وهى غير روستوف–على–الدون ، التى أسست عام ١٧٤٩ . **المترجم** .

لكن سرعان ما ظهر منافس جديد على عرش الأمارة العظيمة — الا وهو مستيسلاف أمير تموتوروكان (انظر هامش ه) . بعد المعركة التى وقعت بينهما قرب ليستفينا عام ١٠٢٤ والتى انتصر فيها مستيسلاف ، اتفق الأميران حسب معاهدة ١٠٢٦ على أن يقتسما أراضى امارة كييف فيما بينهما : فاصبحت الاراضى الواقعة على ضفة الدنيبر اليسرى لمستيسلاف ، أما الضفة اليمنى فاصبحت لياروسلاف . ان ياروسلاف لم يصبح حاكما وحيدا لدولة كييف الا بعد وفاة مستيسلاف عام ١٠٣٦ . بلغت دولة كييف فى عهد ياروسلاف ذروة ازدهارها . فهو قد انجز سلسلة من التدابير الموجهة لتقوية روسيا وتوطيد الحكم الفردى فى الأمارة : أخذ يحصن الحدود ، ومن أجل ذلك قام ببناء مدن جديدة محصنة على الاطراف — منها مدينة يوريَف (تدعى تارتو فى الوقت الحاضر) ومدينة ياروسلافل على الفولغا ؛ فى عام ١٠٣٦ أنزل ضربة قاضية بقبائل البجناك ه ؛

ه البجناك — اسم أطلق على اتحاد قبائل تركية مع

وفى نفس العام سجن أخاه سوديسلاف (كان اميرا على بسكوف) فى الديماس من أجل توطيد سلطانه وخوفا من منافسة أخيه له . فى عام ١٠٣٧ أنشأ مطرانية كييف ، وهذا يدل على مدى النمو السياسى لجبروت كييف فى ذلك الوقت . أما فى عام ١٠٥١ فانه أجلس على كرسى المطرانية أول مطران روسى — هو ايلاّريون (الى هذا الوقت كان كل المطارنة بيزنطيين ، كان يعينهم امبراطور بيزنطة . المترجم) . وفى عهده أيضا أخذ البناء ينتشر بصورة مدهشة فى كييف ونوفغورود والمدن الروسية الأخرى . ان بناء كاتدرائية صوفيا الشهيرة فى كييف وبوابة كييف الذهبية يرجع الى عهده . أما الثقافة فى

قبائل السارامات فى السهوب الممتدة وراء الفولغا فى القرنين الثامن والتاسع ، وفى سهوب روسيا الجنوبية فى القرن التاسع ، وكانت قبائل رحلا تمتهن رعى الماشية . كانت تغير على مدن روسيا القديمة الى أن انزل فيها ياروسلاف الحكيم الضربة القاضية . نزح قسم من قبائل البجناك الى هنغارية (انظر كذلك ياقوت الحموى «معجم البلدان» — جـ٣ ص ٤٤٦ .) **المترجم** .

عهد ياروسلاف فقد ازدهرت بصورة مهيبة : ففى ذلك الوقت ظهر تدوين الأخبار وتطورت صناعة الكتب تطورا واسعا . وكذلك تعززت روابط روسيا الدولية التى وطدت بالروابط العائلية بين ياروسلاف * وبنيه وبين بلاط الملوك فى البلدان الأخرى . حصل ياروسلاف من معاصريه على لقب «الحكيم» . توفى ياروسلاف عن عمر ناهز ٧٦ سنة .

من هذا الوصف لحياة ياروسلاف يتضح لنا لماذا نعته مؤلف «الكلمة» بلقب «الكبير» : فهو كبير ليس فقط بما جاوز من عمر طويل وبعد زمنى يفصله عن مؤلف «الكلمة» ، بل لأنه كان حكيما وشخصا عظيما ورجل دولة كبيرا .

٥ **لمستيسلاف الشجاع ، الذى ذبح ريديديا . . .** — هو مستيسلاف بن فلاديمير الأول ، أخو ياروسلاف الحكيم . كان فى البدء أميرا على

* كان ياروسلاف الحكيم متزوجا من ابنة ملك السويد الأميرة اينغيردا . **المترجم** .

تموتوروكان ، بعد ذلك أصبح أميرا على تشرنيغوف . لا يعرف العام الذى ولد فيه مستيسلاف ، لكنه كان أصغر سنا من ياروسلاف . فى عام ١٠٢٤ سار مستيسلاف الى كييف على رأس جيش (انظر التفاصيل فى الهامش ٤) . يذكر المؤلف هنا النزاع الذى حدث بين الأمير مستيسلاف وريديديا أمير قبائل الكاسوغ (الكاسوغ — الأسم الروسى القديم للشركس ، أو اسم احدى قبائل هذا الشعب ، التى كانت تعيش على الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأسود) عام ١٠٢٢ : «عندما كان مستيسلاف فى تموتوروكان حمل على الكاسوغ . فلما سمع أمير الكاسوغ ريديديا عن هذه الحملة ، خرج لملاقاته . وبعد أن تقابل الجيشان قالْ ريديديا لمستيسلاف : «لأجل ماذا نفنى محاربينا ؟ لننزل نحن الأثنين ونتبارز ، فاذا أنت هزمتنى أخذت أموالى وزوجتى وأطفالى وأرضى ؛ أما اذا أنا هزمتك ، سآخذ كل ما تملك» . وقال مستيسلاف : «ليكن ما تريد» . وقال ريديديا لمستيسلاف : «لن نتقاتل بالسلاح ، بل دعنا نتصارع» . وبدآ يتصارعان

بشدة ، وتصارعا طويلا ، فأخذ مستيسلاف يوهن ، لأن ريديديا كان ضخما وقويا . لكن مستيسلاف نذر على نفسه أن يبنى كنيسة فى حالة انتصاره . بعد ذلك طرح ريديديا أرضا وأستل خنجرا وذبح به ريديديا ، وسار فى أرضه فأخذ امواله وثروته وأطفاله ، وفرض الجزية على الكاسوغ» . مات عام ١٠٣٦ .

٦ **لرومان بن سفياتوسلاف الجميل** — هو حفيد ياروسلاف الحكيم ، أخو أوليغ بن سفياتوسلاف . كان أميرا على تموتوروكان . ان دواوين الأخبار لم تذكر عنه الا القليل . لقد قتل رومان على أيدى القفجق عام ١٠٧٩ .

٧ **لنبدأ . . . من فلاديمير القديم** — هنا يدور الكلام عن فلاديمير الأول بن سفياتوسلاف (عام ولادته غيرمعروف — مات عام ١٠١٥) ، تولى أمارة كييف منذ عام ٩٨٠ تقريبا ، وهو ابن سفياتوسلاف بن ايغور من جاريته مالوشا لوبيتشانكا ،

مدبرة منزله . أصبح فلاديمير فى عام ٩٦٩ أميرا على نوفغورود بمساعدة خاله دوبرينيا . شارك فلاديمير بعد وفاة والده سفياتوسلاف فى الحروب الداخلية وأحرز نصرا على أخيه الأكبر ياروبولك ، الذى قتل غدرا على أيدى المرتزقة من قبيلة الفارياغ (هـ١١٥) فى جيش فلاديمير . لقد عزز فلاديمير أركان دولة روسيا القديمة بحملاته المتوالية على القبائل والشعوب المعادية . ومن أجل تنظيم الدفاع ضد قبائل البجناك ، قام فلاديمير ببناء خطوط دفاع على هيئة قلاع محصنة على أنهار ديسنا وأوسيوتر وتروبيتش وسوليو وستوغنيو . وهذه كانت المرة الأولى فى تاريخ روسيا أن أصبحت لها حدود معينة . لقد قاد صراع فلاديمير الناجح ضد قبائل البجناك الناس الى أن ينسبوا الصفات المثالية الى شخصه وشكل أمارته . أما فى الأدب الملحمى الشعبى فأنه قد حصل على لقب فلاديمير الشمس الجميلة .

فى حوالى عام ٩٨٨ أدخل فلاديمير الدين المسيحى الى روسيا ، الذى اعتنقه من بيزنطة بعد استيلائه على المستعمرة الأغريقية خيرسونيس وزواجه

بـ«آنّا» أخت الأمبراطور البيزنطى . لكن التنصير لم يضع روسيا القديمة فى التبعية لبيزنطة . ان أمارة فلاديمير كانت فترة نهوض دولة كييف — بالذات فترة تقوية الحكم الاقطاعى فى الداخل ، وحملات الغزو الموفقة ، وتطور الثقافة والزراعة ، والحرف اليدوية . لكن من جهة أخرى وفى هذا الوقت بالذات قام ابنه سفياتوبولك بتمرد ضده ، وكانت هذه بادرة التفتت الأقطاعى لروسيا القديمة .

٨ . . . **الى الأرض البولوفيتسية** — ظهر البولوفيتسيون فى روسيا عام ١٠٥٤ . انهم حلوا محل قبائل البجناك ، وكانوا ، حسب دورهم التاريخى ، اسلافا للتتر والمغول . ان أصل ونشوء هذا الشعب يبقى غامضا لحد الآن . لكننا الآن يمكننا أن نقول بكل يقين أن هذا الشعب منحدر من أصل تركى . ان البولوفيتسيين فى الوثائق الشرقية (العربية والفارسية) يعرفون بـ«القفجق» * ، والسهب الذى عاشوا فيه

* القفجق — «أما القبجق ، فمساكنهم فى جبال

تدعى بـ«دشتى — قفجق» . أما فى الوثائق الاوربية ، فأنهم يدعون بـ« Cumanicus » . كان القفجق منظمين ومسلحين بصورة جيدة ، وكانت لهم دراية كافية بفن الفروسية ، فكانوا يمثلون قوة هامة وخطيرة بالنسبة لروسيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . لقد اتخذ هذا الصراع شكله الضارى بالأخص فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، عندما عزل القفجق روسيا عن أسواقها الشرقية . امتدت اراضى القفجق فى نهاية القرن الحادى عشر والثانى عشر على السهوب الساحلية للبحر الأسود من الدانوب حتى الفولغا ، وعلى سهوب شبه جزيرة القرم وسواحل بحر آزوف ، وكان القفجق يترحلون أيضا فى السهوب المجاورة للقفقاز الى الفولغا السفلى .

غياض من وراء دربند شروان مما يلى بحر الروس ، ولهم مدينة اسمها سرداق والبحر ينسب اليها ، ودربندها عقبة صعبة ضيقة وبحر القبجق هو بحر آزوف المشهور .» — «نخبة الدهر» للشيخ الربوة ، ص ٢٦٤ . **المترجم**

٩ **آنذاك ألقى ايغور نظرة . . . .** — فى هذا المكان من «الكلمة» يدور الحديث عن كسوف الشمس الذى حدث فى الواحد من أيار عام ١١٨٥ ، أى فى اليوم الثامن من خروج ايغور فى حملته (انه خرج فى الثالث والعشرين من نيسان ، كما جاء فى ديوان الأخبار) . ليس من الصدفة بمكان أن نقل مؤلف «الكلمة» ، خلافا للحقيقة التاريخية ، كسوف الشمس الى بداية الحملة — انه أراد بهذا أن يشيد بشجاعة وجرأة ايغور ، لأن كسوف الشمس فى القرون الوسطى كان يعتبر نذير شؤم وبلاء .

١٠ **فقال : «أريد أن اكسر رمحى . . .»** — كانت الرماح سلاح الأشتباك الأول وكانت فى الغالب تقريبا تتكسر فيه .

ولهذا يصبح واضحا وعاديا أن نجد فى دواوين الأخبار مصطلح «تكسير الرماح» ، فهو يستعمل للأشارة الى أن المقاتل أول من شارك فى المعركة . ولهذا الاعتبار أن كلمات ايغور تدل على

مدى رغبته فى أن يكون الأول فى خوض المعركة .

١١ **. . . وأما أن اشرب من الدون بخوذتى** — ان شرب الماء من نهر العدو وكان يعنى فى الأدب الروسى القديم الانتصار عليه .

١٢ **. . . مسرعا على غير هدى فى مخارم ترويان . . . .** — ان «ترويان» يذكر فى «الكلمة» ثلاث مرات اخرى : «كانت قرون ترويان» ، «وطأت أرض ترويان» ، «فى القرن السابع لترويان» . لقد اختلف العلماء فى الرأى حول شخص «ترويان» . فاذا كان «ترويان» أحد الآلهة فى روسيا القديمة قبل اعتناقها المسيحية (عام ٩٨٨) ، فيكون معنى العبارة «. . . مسرعا على غير هدى فى مخارم ترويان» — الجرى فى طريق الآلهة ، ومعنى «كانت قرون ترويان» — كانت القرون الوثنية ، ومعنى «وطأت أرض ترويان» — وطأت الأرض الروسية ، ومعنى «فى القرن السابع لترويان» — فى القرن الأخير

الوثنية في روسيا . ان الآلهة الوثنية لروسيا القديمة (فيليس ، داجبوغ ، ستريبوغ) تذكر مرارا في «الكلمة» كرموز شعرية واستعارات فنية لاغير ، لأن المؤلف كان مسيحيا .

١٣ **ولأضطر حفيد فيليس** . . . — ان اسم فيليس أو فولوس (اله الرعاة) يذكر عدة مرات في ديوان الأحداث . وكانت اصنام فيليس-فولوس في القرن العاشر قائمة في كييف ، وروستوف ، وربما في نوفغورود وفي مدن اخرى . وبالأضافة ان فيليس-فولوس كان اله الرعاة ، فأنه كان يعتبر حامي المغنين والشعراء ايضا .

١٤ **الخيل تصهل وراء سولا ، والمجد يدوي في كييف** . . . — سولا — النهر الحدودي ، الذي كان يفصل بين الأراضي الروسية واراضي القفجق الرحل . ربما يكون معنى هذه العبارة كالآتي : «ان خيل المقاتلين الروس تصهل وراء سولا ، وان خبر الانتصارات قد وصل الى كييف» . ان ذكر

كييف هنا ما هو الا نهاية الحديث الـــــذي يقلد فيه اسلوب بويان ، والبدء في سرد أحداث حملة ايغور . ان هذه العبارة ليست من كلام مؤلف «الكلمة» ، وذلك لأن كييف لم تلعب أي دور في تنظيم الحملة .

١٥ **في نوفغورود** . . . — يدور الكلام هنا عن مدينة نوفغورود-سيفيرسكي الواقعة على نهر ديسنا في أمارة تشرنيغوف . لقد سميت بسيفيرسكي ، لأنها كانت تقع في بلاد السيفيريان (احدى القبائل الروسية القديمة) . ذكرت لأول مرة في ديوان الأحداث عام ١١٤١ ، ولم تصبح ذات شأن الا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . وهي غير مدينة نوفغورود الشهيرة بآثارها القروسطية الواقعة الى جانوب من لينينغراد .

١٦ **في بوتيفل** . . . — مدينة صغيرة على المجرى الأسفل لنهر سيم ، وهي تقع الى الجنوب من مدينة نوفغورود-سيفيرسكي . كان يحكمها فلاديمير بن ايغور .

١٧ **ان ايغور ينتظر أخاه العزيز فسيفولود** — فسيفولود بن سفياتوسلاف (حوالى ١١٥٥ — ١١٩٦) أمير تربتشيفسك وكورسك ، وهو أخو ايغور .

١٨ **الثور الاهوج** — هنا يراد به «التور» (بالتاء) ، وهو ثور برى اوروبى شبه منقرض (Aurochs) (ليس فى العربية ما يضاهى هذه الكلمة ، لكن بما أن المعنى واللفظ متقاربان لحد بعيد ، فقد آثرنا الكلمة العربية . **المترجم**) . كان «التور» فى روسيا القديمة رمزا للرجولة والقوة والشجاعة . وان هذه الكلمة تتردد كثيرا فى الفلكلور الروسى والأوكرايني والبيلوروسى . كانت الثيران الوحشية توجد بكثرة فى روسيا الى الثلث الأول من القرن السابع عشر وكثيرا ما كانت هدفا لرحلات الصيد يقوم بها الأمراء . ان مثل هذا اللقب كان يبرز رجولة وجرأة وقوة فسيفولود .

١٩ . . . **قرب كورسك** — مدينة كورسك تقع فى أعالى نهر سيم ، على ضفاف نهرى توسكورا وكورا

(ومن الأخير تسمية كورسك) . ذكرت كورسك لأول مرة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر . كانت لكورسك اهمية خاصة لكونها مدينة حدودية : فموقعها ليس بعيدا عن السهوب البولوفيتسية ، ومن هنا تأتى صفات رجال كورسك «الكماة المجربون» الشجعان .

٢٠ **فهم تحت أصوات الأبواق قد قمطوا** — تكثر مثل هذه التعابير فى الفلكلور الروسى حيث يتحدث فيها عن نشوء وتربية الجبابرة .

٢١ **طالبين الشرف لأنفسهم والعزة للأمير** — ان هذه العبارة كانت عادة تستخدم بين حراس ومقاتلى الأمراء فى حياتهم اليومية . فكان طلب الشرف للذات والمجد للأمير فى روسيا القديمة المزية الرئيسية فى حياة المقاتل .

٢٢ **لقد تنفش الديف** — لم تحصل كلمة «ديف» على معنى موحد معترف به من قبل الجميع . لكن

أكثرية الباحثين تعتبر «الديف» كائنا خرافيا (لحد ما يشبه العفريت أو الطير العليم ، المتنبئ) . ان هذا الكائن فى «الكلمة» يحذر البلدان المعادية لروسيا .

٢٣ . . . **وللأرض الساحلية ولضفاف سولا ولسوروج ولكورسون** . . . — كأن المؤلف يريد هنا أن يبين مدى شسع الأراضى التى نبهها «الديف» والتى خرجت منها جيوش القفجق لملاقاة ايغـــور : فالاراضى الساحلية يعنى بها سواحل بحر آزوف ، وضفاف سولا يعنى بها الاراضى الممتدة على طول نهر سولا (رافد نهر الدنيبر الأيسر الى الجنوب من كييف) ، وسوروج وكورسون ويعنى بهما مدينتى سوداك وخيرسون الحاليتين فى شبه جزيرة القرم .

٢٤ . . . **ولك يا صنم تموتوروكان !** — كانت مدينة تموتوروكان تقع ضمن منطقة مدينة تامان الحالية الواقعة على الساحل الشمالى للبحر الأسود . وحسب المصادر التاريخية البيزنطية ان هذه المنطقة

كانت معروفة فى القرن العاشر تحت اسم تماتارخى . كانت تموتوروكان فى القرن الحادى عشر أمارة روسية ، حيث كانت تسكنها اعداد كبيرة من الروس ، وكانت عرى روابطها وثيقة جدا مع أمارة تشرنيغوف ، اذ كان يحكمها امراء تشرنيغوف . ولهذا السبب نرى أن الأمير ايغور بن سفياتوسلاف كان يعتبر تموتوروكان اقطاعة شرعية يرثها أمراء تشرنيغوف ، فجعل تحريرها من تحت سيطرة القفجق ، الذين اغتصبوها من روسيا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، هدف حملته . ربما كان «الصنم» المذكور هو أحد الأعمدة أو التماثيل ، التى شيدت فى عام ٣٠٠ ق . م . للآلهة سانيغر وأستارتا فى شبه جزيرة تامان والتى ظلت قائمة حتى القرن الثامن عشر .

٢٥ **التروس القرمزية** — ان التروس الروسية فى القرن الثانى عشر كانت خشبية خفيفة ، شكلها لوزى أو بيضوى ، وكانت توثق بالحديد وتصبغ بلون وردى احمر صارخ . ان التنقيبات الأثرية

والمنمنمات فى المخطوطات الروسية القديمة قد أثبتت هذا الشىء .

٢٦ **فنام شدو العنادل ، وأفاق نعيق الزيغان** — ان العندليب او البلبل طير ليلى ، والزاغ طير نهارى . وهذه الاستعارة الجميلة تخبرنا أن الليل قد أنقضى وحل محله الصباح .

٢٧ **والعُذْرة القرمزية** — ويعنى بها الـ«بونتشوك» (كلمة منحدرة من اللغات التركية) : وهو عبارة عن ذيل فرس مركب على سارية ما ومصبوغ باللون الأحمر ، وكان رمزا للسلطة والقوة عند الشعوب التركية .

٢٨ **غزاك وكونتشاك** — من خانات القفجق . لكن الخان كونتشاك بن أوتروك قد انفرد بوجه خاص كأنشط والد اعداء روسيا ، حيث قاد مرارا الحملات ضدها .

٢٩ **ان سحبا سوداء تنطلق من البحر** — ان انطلاق السحب فى الفلكلور الروسى يرمز عادة الى العدو الهاجم .

٣٠ **انها تريد حجب أربع شموس** — ويعنى بالشموس الاربع : ايغور وفسيفولود وسفياتوسلاف (ابن أخى ايغور) وفلاديمير (ابن ايغور) .

٣١ **على نهر كايالا** — لم يعثر لحد الآن على مكان هذا النهر .

٣٢ **ان الرياح ، احفاد ستريبوغ ، تهب من البحر . . .** — كان الرماة عادة يتقدمون الصفوف ويبدأون المعارك بتراشق السهام من بعيد وكانت الرياح تلعب دورا بارزا فى تعجيل أو خفض سرعة السهام . ان الرياح فى هذه الحالة كانت مؤاتية بالنسبة للقفجق ، الذين حصلوا على تفوق كبير — فالبحر كان وراءهم . أما ستريبوغ فكان أحد الآلهة فى روسيا الوثنية .

٣٣ **الأنهار تجرى عكرة . . .** — هنا استمرار لوصف هجوم القفجق ، الذى يصوره المؤلف كزوبعة مطرية مندفعة . فكما أن الأمطار الغزيرة تعكر صفو المياه فى الأنهار ، فأن خيول القفجق قد عكرتها من كثرة الخوض فيها . ومن المهم أن نذكر أن المياه التى تجرى عكرة ترمز فى الفلكلور الروسى الى الحزن .

٣٤ **الخوذ الأفارية . . .** — سميت هكذا ، ربما ، لأن خوذ القفجق كانت تصنع على غرار خوذ الأفاريين — أى القبائل ، التى كانت تقطن الاراضى الواقعة على الساحل الغربى لبحر خزر* (حاليا جمهورية داغستان السوفييتية ذات الحكم الذاتى) .

---

* الخزر — أقوام تركية الأصل ظهرت فى أوربا الشرقية فى القرن الرابع الميلادى . كانت تترحل فى الأراضى الواقعة الى الغرب من بحر خزر . **المترجم** .

٣٥ **. . . ابنة غليب الجميلة** — كانت أولغا بنت غليب زوج فسيفولود بن سفياتوسلاف . انها حفيدة الأمير يورى دولغوروكى (انظر هامش ٧١) ، مؤسس مدينة موسكو .

٣٦ **كانت عصور ترويان ، مرت سنون ياروسلاف ، اضحت حروب أوليغ فى خبر كان** — يريد المؤلف هنا ابراز المراحل الثلاث لتاريخ روسيا : الازمنة الوثنية ، زمن ياروسلاف الحكيم ، اى مرحلة اعتناق روسيا للديانة المسيحية ووحدة روسيا ، وأخيرا مرحلة الفتن والحروب الداخلية ، التى أثارها أوليغ .

٣٧ **أوليغ بن سفياتوسلاف** — هو الأمير أوليغ بن سفياتوسلاف (؟ — ١١١٥) حفيد ياروسلاف الحكيم (انظر هامش ٤) وجد ايغور وفسيفولود (انظر هوامش ٢ ، ١٧) . ان الحروب الداخلية المدمرة والمؤامرات التى كان يدبرها ويثيرها ويقودها اوليغ كثيرة جدا . ونحن هنا سنذكر بعض مراحل حياته وصراعه المستميت من أجل السلطة ، لما ستسلطه من ضوء

على الحياة السياسية فى روسيا آنذاك . فى عام ١٠٧٦ مات أبو أوليغ الأمير سفياتوسلاف بن ياروسلاف أمير تشرنيغوف . حكم كييف فى هذا الوقت الأمير ازياسلاف بن ياروسلاف — الأخ الاكبر لسفياتوسلاف وعم أوليغ . بعد مـــوت سفياتوسلاف جلس أخوه فسيفولود على عرش تشرنيغوف . فى فترة الحملة التى قادها فسيفولود ضد أخيه ازياسلاف عام ١٠٧٧ (والتى انتهت بعقد الصلح والسلام بينهما) حكم تشرنيغوف بوريس بن فياتشيسلاف (حفيد ياروسلاف ، وابن اخى فسيفولود وازياسلاف) ، لكن حكمه لم يدم سوى ثمانية أيام ، هرب بعدها الى تموتوروكان الى ابن عمه رومان بن سفياتوسلاف (أخو أوليغ) ، الذى كان يحكم هناك فى هذا الوقت (انظر هامش ٦) . ان ايزياسلاف وفسيفولود قد أدركا جيدا ان أكثر الأدعياء خطورة على عرش تشرنيغوف سيكون أوليغ بن سفياتوسلاف . ولأجل أن يؤمنا أنفسهما من طموحاته ، فأن فسيفولود وايزياسلاف استدعيا ابن اخيهما أوليغ ، الذى كان يحكم على

مدينة فلاديمير فولينسكى ، أن يتحول اليهما فى تشرنيغوف . وبالرغم من أن أوليغ قد أستقبل بحفاوة بالغة ، لكنه فهم على الفور أن وصوله لم يكن سوى أسر مشرف . وفى عام ١٠٧٨ هرب من تشرنيغوف الى تموتوروكان الى أخيه الأكبر رومان . وفى نفس العام وبعد أن عقد هو والأمير بوريس حلفا مع القفجق ، سار على رأس حملة ضد فسيفولود . حدثت معركة بين الطرفين فى الخامس والعشرين من آب على نهر سوج ، اندحر فيها فسيفولود وهرب الى ايزياسلاف فى كييف . جلس أوليغ على عرش أمارة تشرنيغوف . لكن «ايزياسلاف وابنه ، وفسيفولود وابنه» جمعوا جيشا قويا وساروا به من كييف الى تشرنيغوف ، فاستولوا على المدينة . لكن أوليغ وبوريس ، اللذين لم يكونا فى تشرنيغوف أثناء هذه الأحداث ، جمعا هما الآخران جيشا وسارا به الى المدينة . خرج للقائهما ايزياسلاف وفسيفولود . اقترح أوليغ على بوريس الا يخوضا المعركة ، لأنه فهم جيدا أن عدوهما كان أقوى بكثير ، لكن بوريس لم يقتنع بذلك وكان مصمما

أن يخوض المعركة لوحده فيما اذا رفض أوليغ أن يحارب معه . لذلك أضطر أوليغ أن يشارك فى المعركة . قتل فى بدء المعركة بوريس ومن الجانب الآخر قتل ايزياسلاف . أما أوليغ فهرب من جديد الى تموتوروكان . بما ان الأمير ايزياسلاف قد قتل ، فان عرش كييف اصبح شاغرا ان الموقف السياسى قد تغير : فلم يعد الأمير فسيفولود مهتما اكثر بأمارة تشرنيغوف ، لأنه جلس الآن على عرش كييف ، وخلف ابنه فلاديمير مونوماخ (ه١١٧) على أمارة تشرنيغوف . كان أوليغ فى هذا الوقت اسيرا عند قبائل الخزر ، لكنه استطاع أن يهرب من هذا الأسر ، وبعد مرور خمس عشرة سنة سار من جديد الى تشرنيغوف . تنازل له فلاديمير مونوماخ طواعية عن امارة تشرنيغوف . فبدأت امارة اوليغ على تشرنيغوف منذ عام ١٠٩٤ . لكن فى عام ١٠٩٦ حدثت مصادمة بين فلاديمير وسفياتوبولك من جهة وبين أوليغ من جهة اخرى . هرب أوليغ من تشرنيغوف الى ستارودوب ، حيث قضى ٣٣ يوما فى الحصار ، استسلم بعد ذلك على شرط

أن يذهب مع أخيه دافيد الى كييف لعقد اتفاقية مع كل الامراء الروس . لكنه لم ينفذ ما اتخذه على نفسه من تعهدات وحسب ، بل بدأ صراعا مستميتا مع بنى مونوماخ . ففى المعركة من أجل الاستيلاء على مدينة موروم قتل ايزياسلاف — أحد أبناء فلاديمير مونوماخ . أخضع أوليغ لحكمه كل أراضى موروم وروستوف . بعد ذلك بدأت معاركه مع مستيسلاف — ابن فلاديمير الآخر ، التى اندحر فيها أوليغ فى نهاية الأمر . لكن بعد مؤتمر لوبيتش عام ١٠٩٧ أخذت سياسة أوليغ تتغير بعض الشيء ، فبدأ وبدون رغبة منه ، يشارك فى الصراع ضد القفجق . مات اوليغ عام ١١١٥ .

٣٨ . . . **الى القضاء** — أى الى الموت . كان ينظر الى المعارك فى روسيا القديمة وبالأخص فى الحروب الداخلية ، كالـ«قضاء الالهى» — فالذى كان يندحر أو يقتل فى المعركة ، كان يعتبر على باطل وأن الرب نفسه قد حكم عليه بالموت ، أما المنتصر فكان يعتبر على حق .

٣٩ **ففرش له كفنا أخضر على كائينا** — يعنى بالكفن الأخضر الأعشاب الخضراء ، أما كائينا فاسم جدول او نهر قرب مدينة تشرنيغوف .

٤٠ **ومن كايالا تلك** . . . — ليس واضحا أن نصادف هنا كايالا : هل أنها ذكرت بادراك كتواز مع أحداث ١١٨٥ ، أم أنها زلة قلم الناسخ بدلا من «كائينا» .

٤١ . . . **بين الجياد الهنغارية الرهاء** . . . — كانوا فى الماضى يشدون النقالات والحمالات لنقل الجرحى والموتى باعمدة طويلة الى فرسين رهوتين سائرتين احداهما خلف الآخرى . ان اهتزاز النقالات فى هذه الحالة ضئيل جدا .

٤٢ **آنذاك فى عهد أوليغ غوريسلافيتش** — هكذا يكنى مؤلف «الكلمة» الأمير أوليغ بن سفياتوسلاف (انظر هامش ٣٧) مستهزئا به ، ساخرا منه وعاطفا عليه فى آن واحد لما دبر من مؤامرات وما أثار من

فتن وحروب داخلية راح ضحيتها الكثير من الناس البسطاء الآمنين ومن الأمراء ، وسالت من جرائها دماء كثيرة . (ان كلمة «غوريسلافيتش» تعنى بالحرف الواحد ابن البلايا ، ابن المصائب . ربما يضاهى هذه الكلمة فى العربية لفظ : ابو البلايا ، ابو المصائب . **المترجم**) .

٤٣ . . . **حفيد داجبوغ** — أى الشعب الروسى . ان داجبوغ كان أحد الآلهة الوثنية فى روسيا القديمة قبل اعتناقها الدين المسيحى .

٤٤ **هذا ما كان فى تلك المعارك وفى تلك الحملات** — هنا ينهى المؤلف ذكرياته عن الحروب والفتن الداخلية وينتقل الى الحديث عن المعركة التى خاضها ايغور ضد القفجق ، والتى لم يكن لها مثيل .

٤٥ **كانت تطير السهام الحامية** — يقصد بالحامية هنا نهايات السهام التى عملت من الفولاذ المسقى .

٤٦ **ان ايغور يرد الألوية الهاربة** — فى أساس هذا المشهد تقع الحادثة التاريخية التالية : ان أول من هرب من ساحة القتال هى فرق الكوفويين المرتزقة التى حاربت الى جانب ايغور (انظر هامش ٦٨) . أطلق ايغور العنان لفرسه كى يلحق بهم ويعيق هروبهم ، لكنه عندما اقترب من جيشه فى طريق العودة قطع عليه الطريق وأسر من قبل القفجق وهو على مرمى سهم منه .

٤٧ **ههنا أنهى أبناء روسيا الشجعان الوليمة : لقد سقوا أصهارهم** . . . — لقد شبه المؤلف المعركة بوليمة زواج . ان مثل هذه التشابيه مألوفة فى الفلكلور الروسى . لكن قوة هذا التشبيه تزداد أكثر اذا ما علمنا أن الكثير من خانات القفجق كانوا بالفعل أصهاراً لأمراء روس ، وذلك لأن الأمراء الروس غالبا ما كانوا يتزوجون بالفتيات من هذه القبائل . وعلى سبيل المثال : ان ابنة الخان كونتشاك (نفس كونتشاك الذى أسر الأمير ايغور) كانت مخطوبة للأمير فلاديمير بن ايغور قبل الحملة

التى نحن بصددها ، أى قبل عام ١١٨٥ ، وبعد اندحارهم ووقوعهم فى الأسر تزوج فلاديمير ابنة كونتشاك ، ثم عاد معها بعد سنتين الى روسيا .

٤٨ . . . **وأخذت تصفق بجناحى تمة** — ان التمة فى العادات الشعبية الروسية ترمز الى النكبة ، الشقاء ، البلية ، المصيبة . اما صورة الفتاة — التمة فكثيرة جدا فى المناحات الشعبية .

٤٩ يقصد بـ«**الصقر**» — ايغور ، وبـ«**الطيور**» — القفجق .

٥٠ **كارنا وجيلا** — هاتان الكلمتان تعنيان الأسى ، الحزن ، المصيبة ، النازلة . انهما مشتقان من فعلين يعنيان ندب الميت والبكاء عليه .

٥١ **قاذفة الناس بالمصائب من القرن الملتهب** — يقارن المؤلف الأسى والشجن ، اللذين انتشرا فى

كل الأرض الروسية ، بقذائف النار الأغريقية — التى هى عبارة عن مزيج محرق استعمله البيزنطيون فى المعارك البحرية ، والذى استعمله القفجق فيما بعد على اليابسة .

٥٢ **الأمير سفياتوسلاف** — يدور الكلام هنا عن أمير كييف سفياتوسلاف بن فسيفولود بن أوليغ (حوالى ١١٢٥ — ١١٩٤) ، ابن عم ايغور وفسيفولود . لقد دعى فى النص «بوالدهما» ، لأنه كان الاكبر سنا ومكانة لا بين أمراء بنى أوليغ وحسب ، بل وبين كل الأمراء الروس . فى عام ١١٨٠ اصبح الأمير سفياتوسلاف أمير كييف العظيم . وقد شارك مرارا فى الحملات ضد القفجق .

٥٣ **فساق كوبياك الوثنى من الساحل . . .** — أسر الخان القفجقى كوبياك بن كارلى «مع اثنين من بنيه» اثناء حملة القوات الروسية المتحدة تحت

قيادة امير كييف سفياتوسلاف عام ١١٨٤ . لقد اطنب المؤلف فى وصف هذه الحملة ، حتى يبرز التفاوت الكبير بينها وبين حملة ايغور الفاشلة .

٥٤ **فوقع كوبياك فى مدينة كييف ، فى بهو سفياتوسلاف** — كانت تدعى بالبهو فى روسيا القديمة قاعة كبيرة جدا للولائم أو لاجتماع حرس الأمير تلحق بقصور الأمراء . (اما عن حجوم هذه الأبهاء فنورد ما قاله الرحالة العربى أحمد بن عباس بن فضلان فى القرن العاشر فى كتابه «رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م» : «ومن (رسم) ملك الروس أن يكون معه فى قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده ، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه . وهؤلاء الاربعمائة يجلسون تحت سريره ، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجوهر . . .» . دمشق ١٩٥٩ ، ص ١٦٥ . **المترجم**) .

٥٥ . . . **فى كييف فوق الجبال** — كان مقر أمير كييف واقعا على مكان مرتفع فى كييف قرب كنيسة القديسة صوفيا .

٥٦ **وغرفوا لى نبيذا أزرق** — «النبيذ الازرق» — رمز الحزن والأكتراب . فى الفلكلور الروسى يلاحظ بجلاء التباين الكبير بين «النبيذ الأخضر» (المصنوع من العنب غير الناضج) الذى يلازم دائما الولائم والأفراح وبين «النبيذ الازرق» (الفودكا أو الكحول المركز) الذى يشرب عادة فى طقوس الدفن أو فى تحنيط الميت . (من عادات الشعب الروسى الى يومنا هذا أن يشربوا قليلا من الفودكا بعد مراسم الدفن ، ثم يجتمعوا فى البيت ، عادة اقرباء واصدقاء الميت ، للاستمرار فى احياء ذكره . يعدون الطعام الملائم لمثل هذه المناسبة ويدعى بـ«الطعام الجنائزى» ، بعد ذلك يجلسون حول مائدة الطعام ، على ان يبقى مكان فارغ على المائدة يوضع عليه صحن وكأس صغيرة يسكب فيها قليل من الفودكا : لا أحد يجلس فى هذا

المكان ، لأنه خصص للميت . ثم يسكبون قليلا من الفودكا فى أقداحهم ويشربونها متذكرين الشخص الذى فقدوه معددين مناقبه والأعمال التى قام بها . يعاد الطقس بعد مرور تسعة أيام واربعين يوما على الدفن . **المترجم**) .

٥٧ **وأسقطوا . . . درة كبيرة على صدرى** — كان اللؤلؤ من الأحجار الثمينة والمنتشرة فى روسيا القديمة ، حيث كان يستعمل فى تزيين الثياب وعمل العقود والحلى . لكن رؤية اللؤلؤ فى المنام كان يعتبر فأل شر وعلامة نحس تجر الى ذرف الدموع الغزيرة . لقد انعكست هذه الخرافات كثيرا فى الشعر الشعبى الروسى .

٥٨ **ولقد اضحت الألواح بدون روافد** — ومن الاعتقادات والخرافات فى روسيا القديمة ، التى كانت تعنى وقوع النكبات والكوارث أن يرى فى المنام البيت بلا رافدة الواح . وما رآه الأمير

سفياتوسلاف يعنى ان بيت بنى أوليغ قد أصابته الكارثة ، الا وهى اندحار ايغور .

٥٩ **بليسنيسك** ـ يعتقد انها كانت قرية قرب كييف .

٦٠ . . . **غابة كيآن** ـ لا يعرف بالضبط لحد الآن معنى هذه الكلمة ، لأن النص معتم وغير واضح فى هذا المكان .

٦١ **انّ شمسين قد خمدتا . . . ومعهما قمران يافعان** ـ يعنى بالشمسين الأميرين ايغور وفسيفولود ، اما القمران فيعنى بهما أوليغ بن ايغور (كان عمره آنذاك عشر سنوات) وسفياتوسلاف أمير مدينة ريلسك ، ابن أخى ايغور . لم يذكر اسم فلاديمير ـ الأبن الأكبر لأيغور هنا ، لأن أخبار زواجه بأبنة الخان كونتشاك قد وصلت الى كييف (أنظر هامش ٤٧) .

٦٢ **فأثاروا فى خينوفا** . . . ـ لحد الآن لم يبت نهائيا فى امر هذه الكلمة : قسم من الباحثين يفترض ان الكلام يدور حول أحد الشعوب الشرقية ، أما القسم الآخر فيرى فى خينوفا القبائل الهنغارية .

٦٣ **ان الظلام قد غطى النور على نهر كايالا** ـ يرى فى انتصار القفجق على الروس كانتصار الظلام على النور . وهذا يتفق مع وصف الكسوف فى بداية «الكلمة» كنذير لاندحار الروس ، فالشمس هناك قد غطت عساكر ايغور بظلام دامس .

٦٤ **وكأجرية الفهود** . . . ـ كانت الفهود تجلب الى روسيا القديمة من البلدان الأخرى ، وكان الأمراء يستخدمونها فى الصيد لما تتميز به من سرعة فى الجرى .

٦٥ **وهكذا شرعت الصبايا الغوتيات** ـ هناك رأى يقول ان القبائل الغوتية كانت تقطن فى شبهى

جزيرتى تامان والقرم فى البحر الأسود . لكن لا يجب أن ننسى ان سكان جزيرة غوتلاند فى بحر البلطيق كانوا يدعون بالغوتيين ايضا .

٦٦ **وتنشد لأيام بوس وتضمر الثأر لشاروكان** — ان الرأى الذى يقره اكثرية الباحثين يؤكد ان بوس أو بوز كان أحد الأمراء الآنتيين (أجداد الصقالبة او السلاف الشرقيين — اى اجداد الروس) ، الذى دحر وصلب فى القرن الرابع الميلادى من قبل ملك الغوتيين فينيتار ، وجائز تماما أن يشبه اندحار ايغور باندحار زعيم الصقالبة القدماء . اما شاروكان — فهو خان قفجقى وهو جد الخان كونتشاك . لقد تكبد شاروكان هزيمة قاسية على يد فلاديمير مونوماخ بالاتحاد مع الامراء الروس الآخرين عام ١١٠٦ .

٦٧ . . . **يا إبنىّ ، ايغور وفسيفولود !** — انظر هامش ٥٢ .

٦٨ . . .**ومع التاترانيين . . . ومع الأولبيريين** —

تعداد لقسم من القبائل المنتمية لشعوب السهوب الرحل المنحدرة من أصل تركى . ان هذه القبائل استوطنت منذ زمن بعيد فى حدود امارة تشرنيغوف ووقعت تحت تأثير حضارة الروس . ومن هذه القبائل كانت تؤلف فرق الكوفويين المرتزقة (انظر هامش ٤٦) .

٦٩ **فسكان ريموف يصرخون** . . . — ريموف مدينة تقع على نهر سولا . لقد تعرضت هذه المدينة لهجوم القفجق بعد اندحار ايغور .

٧٠ **والامير فلاديمير يئن من الجراح** — هو الأمير فلاديمير بن غليب أمير بيرياسلافل ، جرح قرب المدينة من قبل القفجق الذين غزوها هى الأخرى بعد اندحار ايغور ، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها . مات فلاديمير عام ١١٨٧ .

٧١ **يأيها الأمير العظيم فسيفولود !** — هو

فسيفولود بن يورى (١١٥٤ — ١٢١٢) ، حفيد فلاديمير مونوماخ ، أمير مدينة فلاديمير — سوزدالسكى . فى الثمانينات من القرن الثانى عشر كان فسيفولود أحد أقوى أمراء روسيا : فى عهده بلغت أمارته الذروة فى الازدهار ، وكان أول من حصل على لقب «الأمير العظيم» فى مدينة فلاديمير. كان جده فلاديمير مونوماخ وأبوه يورى دولغوروكى * امراء على كييف . لكن فسيفولود لم يرغب فى أمارة كييف ، لأنه بذل جهده كى يجعل من مدينة فلاديمير مركزا للارض الروسية بدلا من كييف .

---

* يوري دولغوروكي (ولد فى التسعينات من القرن الحادى عشر — مات ١١٥٧) ، أمير سوزدال وأمير كييف العظيم ، ابن فلاديمير مونوماخ . من المحتمل انه مات مسموما من قبل نبلاء كييف . فى عام ١١٤٧ تم اجتماع بين الأمير يوري وبين الأمير سفياتوسلاف بن أوليغ أمير نوفغورود — سيفرسكي فى قرية موسكو . ان هذا التاريخ هو اول ذكر لموسكو ، ويعتبر التأريخ التقليدى لتأسيسها . أما المؤسس فيعتبر يوري دولغوروكي . **المترجم** .

٧٢ **فأنت تستطيع أن تنثر الفولغا بالمجاذيف** — صورة مبالغ فيها لجبروت الأمير فسيفولود وتلميح للحملة التى قادها ضد البلغار الفولغيين عام ١١٨٣ حيث استولى على عاصمتهم واغرق سفنهم فى الفولغا .

٧٣ **لبيعت الجارية بنوغاته والعبد بريزانه** — نوغاته (يعتقد ان هذه الكلمة منحدرة من الكلمة العربية «نقد» . **المترجم**) وريزانه : كل منهما وحدة نقدية ذات قيمة شرائية صغيرة جدا كانت متداولة فى روسيا القديمة . فكانت النوغاته تساوى واحدا من عشرين من الغريفنا (العملة النقدية الاساسية فى روسيا القديمة) والريزانه — واحد من خمسين من الغريفنا . فلو علمنا ان متوسط سعر الرقيق فى ذلك الوقت كان خمس غريفنات ، اى ١٠٠ نوغاته أو ٢٥٠ ريزانه ، لأتضح لنا معنى هذه العبارة التى تبالغ كثيرا فى جبروت وقوة فسيفولود . فلو أنه اشترك فى الحرب ضد القفجق ، لأسر وسبى منهم ذلك العدد الهائل بحيث اصبح سعر المرأة أرخص بمئة

مرة ، وسعر الرجل ارخص بمئتين وخمسين مرة مما كان عليه .

٧٤ **بواسطة أبناء غليب الاشاوس** — ويعنى بهم ابناء غليب بن روستيسلاف أمير مدينة ريزان ، الذين اشتركوا معه فى حملته ضد البلغار الفولغيين عام ١١٨٣ . لحد الآن لا يعرف بالضبط ماذا تعنى كلمة شيرشير ، لكن الباحثين اتفقوا على اعتبارها نوع من قذائف النار المحرقة .

٧٥ **وأنتما يا ريوريك الهائج ، يا دافيد !** — ان ريوريك (مات عام ١٢١٢) ودافيد (مات عام ١١٩٧) هما ولدا روستيسلاف بن مستيسلاف ، حفيدا فلاديمير مونوماخ . كان ريوريك شريكا لسفياتوسلاف — أمير كييف — فى الحكم ، فكان يحكم كل المدن الواقعة ضمن أمارة كييف ، ما عدا مدينة كييف . اما دافيد بن روستيسلاف فكان أميرا على سمولينسك ، لكنه كان متزوجا بأبنة الخان القفجقى بيلوك ، ولذلك لم يكن يحبذ

محاربة القفجق . ففى عام ١١٨٤ ، عندما جهز الأمراء الروس حملة مشتركة ضد القفجق ، انسحب دافيد بقواته ورجع الى سمولينسك قبل بدء المعركة .

٧٦ **يأيها الأمير الغاليتسى ياروسلاف أوسمومبسل !** — هو ياروسلاف بن فلاديمير (١١٣٠ — ١١٨٧) ، أمير غاليتش (١١٥٣ — ١١٨٧) ، حمو الأمير ايغور (والد زوجته) . لقد كانت أمارة غاليتش من أقوى الأمارات الروسية ، وكانت للأمير ياروسلاف مكانة مرموقة بين الأمراء الروس . لكن المؤلف يبالغ كثيرا فى تصوير قوة وجبروت الأمير الذى بقى عديم الاكتراث بما حل بصهره . أما كنايته بـ«اسمومبسل» فلها عدة تفسيرات : «ذو الأفكار الثمانية» ، «ذو الهموم الكثيرة» ، «حكمته عن ثمانية رجال» (لأن «أوسيم» فى اللغة الروسية القديمة تعنى ثمانية . **المترجم**) . مات ياروسلاف فى الواحد من آب عام ١١٨٧ ، وهذا التأريخ يعطى أساسا لتحديد زمن كتابة هذا الأثر الأدبى

القيم ، فيعتقد أن «الكلمة» قد كتبت في زمن يسبق هذا التاريخ ، لأن المؤلف قد وجه كلامه الى الأمير وهو حي .

٧٧ . . . **الجبال الهنغارية** — ويعني بها جبال كاربات (سلسلة جبلية في تشيكوسلوفاكية وبولندا وهنغارية والاتحاد السوفييتي ورومانيا . طولها ١٥٠٠ كم ، ارتفاعها ٢٦٥٥ م . **المترجم**) التي كانت تمر فيها الحدود بين أمارة غاليتش وهنغارية .

٧٨ **قاطعاً الطريق على الملك** — يعني به ملك هنغارية .

٧٩ **قاذفاً الأثقال عبر السحاب** — تعبير مجازي يتصف به الجبروت القتالي لامير ياروسلاف الغاليتسي .

٨٠ **فأنت تفتح بوابة كييف** — تلميح لقـوة ياروسلاف السياسية ، فهو كان يلعب دوراً كبيراً

في مساعدة الأمراء أن يستولوا على عرش كييف .

٨١ **وترمي من عرش الآباء الذهبي السلاطين . . .** ان مغزى هذه العبارة غير واضح تماما . لكن ، ربما ، يكون هذا تنويها عن اشتراك قوات ياروسلاف في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين الأيوبي . لكن الحملة كانت عام ١١٩٠ ، أي بعد وفاة ياروسلاف (١١٨٧) ، فمن المحتمل أن الحديث كان يدور عن عزم ياروسلاف الأشتراك في هذه الحملة وعن المحادثات التي جرت عنها آنذاك .

٨٢ **وأنت يا رومان الجسور ، ويا مستيسلاف !** — كان رومان بن مستيسلاف (١١٥٠ — ١٢٠٥) أميراً على فولينسك ، وبعد ذلك على غاليتش ، وقد أشتهر بحملاته ضد القفجق ، بعملياته الحربية ضد جيرانه الغربيين ، وبالأخص ضد ليتوانيا . أما من هو مستيسلاف ، فالى الآن لم تثبت هويته بالضبط .

٨٣ **خينوفا** — انظر هامش ٦٢ . أما ليتوانيا ، ياتفياغى ، ديريميلا ، فقبائل كانت تعيش على بحر البلطيق انضمت فيما بعد الى الأمة الليتوانية .

٨٤ **لقد تقاسما المدن على طول روس وسولا** — روس — رافد الدنيبر الأيمن ، وسولا — رافد الدنيبر الأيسر ، وكلاهما كان حدوداً بين الأراضى الروسية وسهوب القفجق . يريد بهذا أن الخانين كونتشاك وغزاك قد «تقاسما» المدن الروسية الواقعة على شريط الحدود والممتد على ضفتى نهر الدنيبر اليمنى واليسرى فيما بينهما .

٨٥ **انكم ، يا انغفار وفسيفولود ، يا أبناء مستيسلاف الثلاثة . . .** — ان انغفار وفسيفولود هما ولدا ياروسلاف بن ايزياسلاف أمير لوتسك ، أما أبناء مستيسلاف الثلاثة فهم أبناء الأمير مستيسلاف بن روستيسلاف الشجاع .

٨٦ **ان ايزياسلاف بن فاسيلكو. . .** — لم يرد فى دواوين الأخبار ، التى وصلت الينا ، شىء يذكر عن هذا الأمير ، ولذلك تبقى شخصيته غامضة .

٨٧ **فتفوق على مجد جده فسيسلاف** — فسيسلاف بن برياتشيسلاف (مات عام ١١٠١) أمير بولوتسك ابن حفيد فلاديمير الأول بن سفياتوسلاف (انظر هامش ٧) .

٨٨ **برياتشيسلاف وفسيفولود** — لم يذكر شىء فى دواوين الأخبار عن هذين الأميرين .

٨٩ **ان الأبواق تزمجر فى غورودين** — أن أمارة غورودين كانت واقعة بين نهرى ستير وغورين قرب مدينة بينسك . فمن المحتمل ان ايزياسلاف بن فاسيلكو كان أميرا عليها . ان مغزى هذا المشهد فى «الكلمة» هو أن الأمير ايزياسلاف قد استشهد وهو يحارب لوحده ضد اعداء روسيا الخارجيين ،

بينما كان الأمراء الآخرون يثيرون الفتن والحروب الداخلية (ويدبرون المؤامرات ضد بعضهم) بدلا من أن يوحدوا الكلمة والصفوف بوجه الغزاة والغاصبين .

٩٠ **فى القرن السابع لترويان** — اى فى العهد الأخير للوثنية ، لان معنى «السابع» فى العصور الوسطى كان يقترن بمعنى «الأخير» . ترويان (انظر هامش ١٢) .

٩١ **اجرى فسيسلاف القرعة على الفتاة التى أحبها** — الأمير فسيسلاف (انظر هامش ٨٧) . اما الصورة التى تكونت عن فسيسلاف كأمير ساحر ، فقد انعكست فى المؤلفات التى كتبت عنه وهو على قيد الحياة . فهو فى عامى ١٠٦٣ و١٠٦٧ استولى على مدينة نوفغورود وأحرقها ، فى عام ١٠٦٨ وبعد أن أطلق سكان كييف الثائرون سراحه من السجن ، الذى رمى فيه بأمر من ايزياسلاف بن ياروسلاف ، اصبح أميرا على كييف ، لكنه

هرب الى بولوتسك بعد سبعة أشهر . لفسيسلاف عدة مزايا مشتركة مع أحد جبابرة الأساطير الروسية القديمة ، هو البطل — السحار فولوخ بن فسيسلاف . فى اغلب الظن يراد بالفتاة هنا مدينة كييف ، التى طالما تمنى فسيسلاف الاستيلاء عليها .

٩٢ **ومس بنصل الرمح عرش كييف الذهبى** — يعنى بالنصل ، اى بنصل رمحه . ان هذه العبارة لم تستعمل صدفة : انها تلميح للفترة القصيرة التى قضاها فسيسلاف أميرا على كييف .

٩٣ **وصف لهرب فسيسلاف السريع من كيف . بيلغورود** — ضاحية كييف وكانت مقر الأمير .

٩٤ **فحطم مجد ياروسلاف** — (عن ياروسلاف انظر هامش ٤) . بعد أن استولى فسيسلاف على نوفغورود—سيفيرسكى لفترة ما عبث بالنظام الادارى الذى سنه ياروسلاف الحكيم لسكان نوفغورود .

٩٥ **ثم عدا كالذئب الى نيميغا من دودوتكي** — يدور الحديث هنا عن الصدام الذى دار بين فسيسلاف الذى بدأ سيره من نوفغورود وبين ايزياسلاف بن ياروسلاف على نهر نيميغا عام ١٠٦٨ ، والذى دحر وأسر فيه فسيسلاف . اما دودوتكي فمختلف فى امرها : قسم يقول انها دير يقع بالقرب من نوفغورود ، اما الآخر فيقول انها منطقة قرب كييف .

٩٦ **لقد قضى الأمير فسيسلاف بين الناس** — ان فسيسلاف ، حسب التصورات والاعتقادات المتكونة عنه كأمير— سحار ، كان يتصرف بمصائر الرعية حسبما يشاء ، وبمساعدة السحر كان يوزع المدن بين الأمراء . وبواسطة السحر أيضا كان يتحول الى ذئب . ان التحول الى ذئب قديم جدا فى الفلكلور ويرتقى الى التقاليد الهندو-اوروبية .

٩٧ **وكالذئب كان يعدو فيقطع طريق خورس**

العظيم — خورس — اله الشمس عند الصقالبة (السلاف) . وان فسيسلاف الذى جرى من كييف الى تموتوروكان (اى من الشمال الى جنوب الغرب) بالفعل قد قطع طريق الشمس التى تسير من الشرق الى الغرب .

٩٨ **فذلك الأمير فلاديمير القديم** — انظر هامش ٧

٩٩ **اما الآن فاضحت راياته بعضها لريوريك ، والأخرى لدافيد .** — عن ريوريك ودافيد (انظر هامش ٧٥) .

١٠٠ **لكن اقمشتها ترفرف فى جهات معاكسة .** — استعارة اراد بها المؤلف أن يوضح عدم الوفاق والوئام الذى كان سائدا بين الأميرين-الأخوين .

١٠١ **الرماح تغنى** — ان هذه الكلمات غير مفهومة ، ربما تكون العبارة مقطوعة .

١٠٢ **انّ صوت ياروسلافنا يسمع على الدانوب** ــ بهذه الكلمات يبدأ «نحيب ياروسلافنا» الشهير ، احد احسن المقاطع الشعرية فى الأدب الروسى القديم . الدانوب ــ تسمية تطلق على الأنهار بصورة عامة عند الشعوب الصقلبية (السلافية) . ياروسلافنا ــ اى بنت ياروسلاف ، واسمها (وهو غير متفق عليه بين الباحثين) يفروسينيا بنت ياروسلاف أوسموميسل (انظر هامش ٧٦) ، وهى زوجة الأمير ايغور .

١٠٣ . . . **فى بوتيفل** ــ مدينة تقع فى مقاطعة سوم ، على نهر سيم ، كانت معروفة منذ عام ١١٤٦ . كان يحكمها الأمير فلاديمير بن ايغور .

١٠٤ **يا دنيبر سلوفوتيتش** ! ــ يعنى به دنيبر المجيد .

١٠٥ **ان أوفلور الذى جاء بالخيل** . . . ــ أوفلور ــ اسم المقاتل البولوفيتسى الذى ساعد الأمير ايغور

على الهرب وبالتالى هرب معه الى روسيا . وحسبما كتبه احد الباحثين كاد أوفلور ان يحتل مكانة مرموقة فى القوات القفجقية ، اما عطفه على الأمير ايغور ، فكان جراء حنقه على عشيرته لاساءتهم له . بعد وصوله الى روسيا أعتنق الدين المسيحى واصبح من المقربين للأمير ايغور .

١٠٦ **القاقم أو القاقوم** ــ حيوان جميل الوجه من فصيلة السموريات ورتبة اللواحم ، على شكل ابن عرس واكبر منه ، يكسوه فرو أبيض غالى الثمن . **المترجم** .

١٠٧ **العلجوم** ــ البطة الذكر . **المترجم** .

١٠٨ **الدونيتس** ــ أحد روافد نهر الدون اليمنى .

١٠٩ **ستوغنا** ــ رافد نهر الدنيبر .

١١٠ **انه ابتلع الأمير الشاب روستيسلاف** ــ ان الأمير روستيسلاف بن فسيفولود بن ياروسلاف الحيكم قد غرق عام ١٠٩٣ ، وهو لا يزال

فى عنفوان شبابه (كان عمره ٢٢ سنة) ، عندما كان يعبر نهر ستوغنا ، امام انظار أخيه فلاديمير مونوماخ .

١١١ **لقد قال بويان وخودينا** — عن بويان انظر هامش ٣ . اما خودينا فربما يكون هو الآخر شاعراً ومغنياً مثل بويان .

١١٢ **مرتفع بوريتشيف** — طريق يرتفع تدريجياً ويوصل الى مركز كييف .

١١٣ **الى القديسة صوفيا فى كييف** — يعنى بها كاتدرائية القديسة صوفيا فى كييف . وضع اساسها عام ١٠٣٧ فى عصر أمير كييف ياروسلاف الحكيم . كانت تعتبر الكنيسة الرئيسية لروسيا القديمة .

١١٤ **النَشير** — الزرع جُمع وهم لم يدوسوه بعد .

١١٥ **الفارياغ** — كما تذكر المصادر الروسية القديمة

ان الفارياغ هم الاسكندنافيون . كانت الكثرة منهم تخدم فى جيوش الامراء الروس كفرسان مرتزقة فى القرون ٩-١١ .

١١٦ **السطوة** — شدة البطش . يراد بالاراضى هنا البلدان ، أى أن أخبار سطواته ذائعة فى البلدان الاخرى وان الناس يهابونه لبطشه وشدة فتكه . ويقال أمير ذو سطوة .

١١٧ **فلاديمير مونوماخ (١٠٥٣ — ١١٢٥)** — أمير كييف العظيم (١١١٣ — ١١٢٥) ، والشخصية السياسية اللامعة فى روسيا القديمة ، والقائد العسكرى المحنك والكاتب الموهوب . انه ابن الامير فسيفولود بن ياروسلاف الحكيم (لُقّب بلقب جده لأمه الامبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخ) . كان مونوماخ على العكس تماماً من أوليغ فى سياسته مع أعداء روسيا . فاذا كان أوليغ حليفاً للقفجق ، فان مونوماخ قاد منذ ١٠٩٣ حرباً لا هوادة فيها معهم ومع حليفهم . انه كان اكثر الامراء تواقاً

الى انهاء النزاعات الداخلية بين الامراء والى رص الصفوف وتكتيل القوى فى روسيا من أجل درء هجمات القفجق . لقد عبر باصرار عن رأيه هذا فى مؤتمرات الامراء التى عقدت فى الاعوام ١٠٩٧ ، ١١٠٠ ، ١١٠٣ . أصبح مونوماخ بعد مؤتمر دولوب (نسبة الى بحيرة دولوب قرب كييف ، التى عقد بقربها المؤتمر) عام ١١٠٣ القائد المباشر والملهم للحملات العسكرية ضد القفجق (فى الاعوام ١١٠٣ ، ١١٠٧ ، ١١١١) . ومن أجل تعزيز قواته المسلحة صار فلاديمير مونوماخ يستعين بالقوى الشعبية غير النظامية فى حروبه مع الغزاة . لقد تكبد القفجق جـراء الحملات هزائم فادحة ولاجل غير مسمى ابتعدوا عن الاراضى الروسية .

أصبح فلاديمير مونوماخ أمير كييف العظيم عام ١١١٣ ، اى بعد وفاة الامير سفياتوبولك بن ابزياسلاف الذى حكم كييف الى ذلك تاريخ . كانت امارته فترة تعاظم قوة كييف ، فانه استطاع ان يوحد حوالى ثلاثة ارباع مساحة دولة روسيا

القديمة وان ينحى النزاعات الداخلية بين الامراء . لكن بعد وفاته اشتد التفتت الاقطاعى لروسيا من جديد . ان مؤلَّف فلاديمير مونوماخ الاساسى هو «الموعظة» ، الذى يعتبر أحد المع الاثار الادبية لروسيا القديمة .

والفرق شاسع ، كما نرى ، بين سيرتى الرجلين وان كانا ابناء عم لح : فالاول (أوليغ بن سفياتوسلاف بن ياروسلاف الحكيم) أراد تفتيت روسيا بكل الطرق ولم يكن ليقف عند حد من أجل مصالحه الشخصية الانانية الضيقة ، وأما الآخر (فلاديمير بن فسيفولود بن ياروسلاف الحكيم) مناضل طيلة حياته من أجل وحدة روسيا وحريتها وقوتها . فأصبح أوليغ رمزاً للغدر والخيانة والانانية ، وأصبح فلاديمير رمزاً لرجل الدولة الفذ ، رمزاً للحكمة والدهاء والايثار .

فهرست

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ١٧ ، موسكو — الاتحاد السوفييتى